اقرأ

عبد المنعم شميس

حرافيش القاهرة



دار المعارف

حرافيش القاهرة

عبد المنعم شميس

حرافيش القاهرة

ذكريات



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

كلهم بشر

كان يحلو لى فى سنوات الصبا والشباب أن أجلس على كرسى فوق رصيف صغير فى شارعنا عند باب دكان جعله صاحبه مكتبًا يستقبل فيه الناس ويدير أعماله، وكان فى هذا الدكان أرائك وكراسى وصوانات صغيرة لحفظ الأوراق وكان صاحبه يفتحه فى الصباح ويقفله فى المساء وقد أعدّ، إعدادًا خاصا ليصلح أن يكون مكتبا فجعل فى صدره حاجزا فوقه رخامة بيضاء لامعة يبلغ طولها ثلاثة أمتار وإلى جانب هذا الحاجز باب صغير ارتفاعه متر واحد وعرضه يقرب من المتر ويتحرك بسهولة عن طريق مزلاج يسمح بالفتح والإغلاق فى سهولة.

وكان هذا الرجل يترك دكانه مفتوحا ويذهب حيث يشاء ثم يعود، وقد عرف الناس أنه لا يبيع ولا يشترى، ولكنه يجلس أحيانا فى مكان مريح خصصه لنفسه فى ركن الدكان وجعل فيه وسائد مريحة تساعده على طول الجلوس داخل دكانه إذا اضطر إلى ذلك.

ولكننى لم أكن أحب الجلوس داخل الدكان فكنت أُخرج منه كرسيا وأجلس على الرصيف لمشاهدة تيار الحياة فى هذا الشارع الصاخب الذى كان يمثل السوق فى حى عابدين، وكان فيه دكاكين لحرف كثيرة وتجارات كثيرة أيضًا تلبى احتياجات كل الناس فى حيّنا وفى الأحياء المجاورة

أيضا، وقد انقرضت بعض هذه الحرف.. أو التجارات اليوم وأصبحت من الذكريات، ولكن كثيرين لا يذكرونها، ولعلهم لم يشاهدوها على الإطلاق.

لقد كان حيّ عابدين فى الجيل الماضى من أهم أحياء القاهرة بسبب وجود قصر عابدين والملك فيه، وكانت تسكنه طبقة الباشوات وغيرهم ممن يعملون فى القصر موظفين أو خدما أو صناعا وحرفيين.

كما كان يجمع أجناسا من البشر من جنسيات مختلفة، وكنت تسمع دائما لغات مختلفة يتحدث بها هؤلاء البشر ما عدا اللغة الإنجليزية لأن الإنجليز لم يكن فى استطاعتهم الحيلة داخل حى كهذا، هم يحتلون مصر وبينهم وبين شعبها عداء متأصل بسبب الاحتلال.

وكنت أسمع فى شارعنا أحاديث باليونانية والإيطالية والفرنسية والأرمنية فى عرض الطريق أو من النوافذ والشرفات بين أبناء هذه الطوائف رجالا ونساء، كما كنت أسمع لهجة أهل النوبة أيضا.

وبعد هذه السنين الطويلة لم تفارق ذاكرتى هذه الصور وما زالت شخوصها ماثلة فى خيالى، ولكن بعض هذه الشخصيات المجهولة تأسرنى وتعود بى إلى ذكريات قديمة كنت أحب أن أسجلها على الورق ولكن شواغل الحياة أو الكسل حالت دون ذلك ولكنها أصبحت تلح على وكأنها تطاردنى وتدعونى إلى تصويرها، كما طالبنى كثيرون من أصدقائى أو أبنائى وأقاربى بالكتابة عن هذه الذكريات التى تصور جانبا من المجتمع القاهرى فى جيل مضى وقد يعرف الناس عنه الأشياء الكبيرة ولكنهم لا يعرفون الأشياء الصغيرة.

وهذه الصفحات تصوير لأشياء صغيرة أصحابها شخصيات مجهولة........ ولكنهم كلهم بشر.

عبد المنعم شميس

باشوات وأغوات

كان أشهر أغا فى مصر هو خليل أغا، والأغا هو الرجل الخصىّ الذى أفقد ذكورته منذ كان طفلا، ولذلك كان يسمح له بدخول الحريم فى الجيل الماضى، وقد يبلغ الأمر أنه يدخل مع السيدة فى الحمام فلا يخشى منه لأنه والسيدة سواء.

وخليل أغا الخادم الخاص للخديوى إسماعيل، وكان مقربا إلى والدة باشا وهى والدة الخديوى إسماعيل. وقد اشترك الخديوى ووالدته فى الإغداق على خليل أغا حتى أصبح من كبار الأثرياء فى مصر، وله أوقاف هائلة وهناك فى حى القلعة عمارات سكنية معروفة كان يملكها خليل أغا وله مدرسة باسمه فى العباسية وشارع فى جاردن سيتى.

وكان الخديوى إسماعيل يلبس خليل أغا على مزاجه لأنه خادمه الخاص الذى يقدم إليه فنجان القهوة، أو يؤدى له رغباته الخاصة فى طاعة وخضوع لأن الطاعة وحدها لا تكفى بل يجب أن يؤدى مراسم الخضوع لأفندينا ولىّ النعم فينحنى عند المثول بين يديه، ويتراجع إلى الوراء عندما يأمره بالانصراف، وقد اختار الخديوى لخليل أغا زيّه الرسمى وهو البدلة الاسطمبولّى السوداء ذات الأزرار المقفولة حتى العنق والقميص الأبيض ذو الياقة المنشاة والإسورة المنشاة أيضا وتوضع بها زراير ذهبية وتظهر

الياقة عالية فوق السترة، كما يضع فى قدميه حذاء من جلد الفرنيه الأسود اللامع وعلى رأسه طربوشا قصيرا بلا زر على أن يناسب احمرار الطربوش لون خليل أغا الأسمر.

وانتشرت موضة الأغوات فى قصور الباشوات تقليدا للخديوى إسماعيل. ولكن هؤلاء الباشوات لم يستطيعوا تقليد زى خليل أغا الذى انفرد به الخديوى، وقد حدث فيما بعد أن صنعت الراقصة شفيقة القبطية لنفسها عربة تشبه عربة الخديوى عباس الثانى فقامت قيامة قصر عابدين ولم يستطيع الخديوى عباس منع الراقصة من ركوب هذه العربة لأن اللورد كرومر تدخل فى الأمر ومنعه من ذلك حتى يكيد للخديو ويظهر سيطرته عليه. وكان الملك فؤاد قد أعد لنفسه ركائب ملكية حديثة من سيارات الرولزرويس والموتوسيكلات، واختار لها لونا أحمر مميزا حرّم استخدامه فى السيارات والموتوسيكلات التى يستخدمها الشعب.

المهم أن أغوات الباشوات لم يستطيعوا أو لم يستطع أسيادهم إلباسهم الزى الذى اختص به خليل أغا، وكانوا يلبسونهم بدلات الردنجوت القديمة التى خلعوها مع القميص الأبيض والببيون أو رابطة العنق العادية، وقد انتشر هؤلاء الأغوات على أبواب القصور فى حى عابدين، وكانوا يعدّون للأغا دكة خشبية يجلس عليها عند أبواب القصور وفى يده عصا. وكانت وظيفة هذا الأغا هى استقبال الضيوف من الرجال أو النساء والدخول بهم إلى القصر حتى يوصلهم إلى سيده أو سيدته ثم يعود إلى الجلوس على الدكة. كما كان من وظائفه أيضا الوقوف لاستقبال صاحب القصر عند عودته فى عربته وتوديعه عند خروجه، وكان الباشوات يركبون عربات الحنطور ذات الحصان الواحد تميزا لها عن عربات

الأجرة ذات الحصانين. ولم تكن للحنطور الملاكى أرقام مثل حنطور الأجرة، لأنه لم يكن له ترخيص يصدر من المحافظة.

وكان أشهر باشوات حى عابدين فى تلك الأيام هو سعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء فى قصر عابدين. وكان قصره فى شارع قولة وعند بابه أغا يرتدى الردنجوت وبيده عصاه ويبدو أن عصا الأغا كانت من الضروريات فى عمله لا من أسباب أناقته أو تميزه فقد كان هؤلاء الأغوات يتعرضون لعبث صبيان الشارع فى كثير من الأحيان فيهب الأغا واقفا يلوح لهم بعصاه.

وكان الصبيان يعاكسون هؤلاء الأغوات حتى يسمعوا أصواتهم عندما يثيرونهم. لأن صوت الأغا كان فى العادة صوتا رخيا ليست فيه قوّة صوت الرجال، كما كان أجرودًا أى لا ينبت الشعر فى لحيته أو شاربه.

والشيء العجيب أن هؤلاء الأغوات كانوا لا يذكرون أسماءهم وكان الناس ينادونهم باسم الأغا، حتى الباعة فى الدكاكين كانوا يقولون للواحد منهم:

- ماذا تريد ياأغا؟

ولم نعرف إلا اسم خليل أغا أشهر واحد من أبناء هذه الطائفة بعد كافور الإخشيدى الذى تولى ملك مصر، وكانت له مع المتنبى وقائع شهيرة سجلها الشاعر فى قصائده ومن أشهرها قصيدته التى قال فيها:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد

ولكن عصا المتنبى انتقلت إلى يد كل أغا من أغوات حى عابدين.

جيران الخديوى

كان من عادة الحاج الكبير أن يرسل إلى قصر عابدين كل عام اثنى عشر أردبا من القمح قبل موسم عاشوراء هدية للخديوى إسماعيل حتى يصنع منها العاشورة على عادة المصريين وردًّا على تحية الخديوى لجيرانه فى المواسم والأعياد، فقد كان الخديوى يرسل إلى جيرانه فى حى عابدين أو إلى أعيانهم على الأصح صوانى الأطعمة الفاخرة فى غرة شهر رمضان وفى ليلة القدر، كما كان يرسل لبيوت هؤلاء الأعيان من أبناء البلد الحلوى فى عيد الفطر وفى غير ذلك من مناسبات.

وعلى عادة أبناء البلد رأى الحاج الكبير الرد على الهدية فكان يرسل هذه الكمية من القمح إلى القصر كل عام محمولة على عربة كارو من عرباته التى كان يستخدمها فى تجارته، وكان الخديوى يقبل هذه الهدية الساذجة فى سرور، ويردها إلى أهالى الحى أطباقا من العاشورة المصنوعة فى مطابخه مخلوطة بالجوز واللوز والفسدق مع قمح الحاج الكبير، وكان الأهالى يسعدون بهذه الهدية الخديوية التى تصل إلى بيوتهم فى أطباق مغطاة بغطاء حريرى ثمين.

وكان طبق العاشورة الخديوى من البورسلين الفاخر ويبلغ قطره حوالى خمسين سنتيمترا وعمقه حوالى ٢٠ سنتيمترا، وهو مزخرف متقن

الصنع، بل إنه من التحف الفنية الرائعة، ولم يكن الخديوى يسترد الأطباق الفارغة بالطبع، فكان هؤلاء الأعيان يحتفظون بها فى بيوتهم، ويتباهون بها، ويقول الواحد منهم لصاحبه:

– هذا طبق الخديوى.

ومع تعدد مواسم عاشوراء كثر عدد هذه الأطباق عندهم وتعددت أشكالها وألوانها، ولكنها كانت على نمط واحد من ناحية الحجم والاستدارة والعمق.

وقد ظل أبناء الحاج الكبير يرسلون القمح إلى قصر عابدين كل سنة حتى عهد الملك فؤاد، برغم أن القصر لم يكن يرسل لهم أطباق العاشورة منذ عزل الخديوى إسماعيل وتولية ابنه توفيق على العرش.

وفى عهد إسماعيل بدأ الباشوات يبنون القصور فى الحى إلى جانب بيوت أبناء البلد، وبدأت هذه الطبقة من الباشوات والأتراك والشراكسة يكونون طبقة منعزلة عن أبناء البلد. مع أن كثيرين من باشوات المصريين بنوا لأنفسهم قصورا أيضا فى الحى مثل سلطان باشا والد هدى هانم شعراوى الذى كان قصره فى شارع جامع شركس ممتدا إلى شارع هدى شعراوى حيث بنى مكانه مسجد ومبنى لوكالة أنباء الشرق الأوسط الآن. كما كان قصر محمود حمدى الفلكى باشا وقصر أحمد عرابى باشا فى الميدان الذى يحمل اسم ميدان الفلكى الآن، وقصر محمود باشا سليمان والد محمد محمود باشا رئيس وزراء مصر الأسبق فى شارع الفلكى، وغيرها من قصور.

ولكن قصور باشوات الأتراك كانت لها طباع خاصة من أهمها جلوس الأغوات على أبوابها كما قلت لك، ورفض أصحابها التعامل مع

أبناء البلد حتى فى التحية والسلام وقد شاهدت وأنا صبى صغير أحد هؤلاء الباشوات يخرج من باب قصره ليركب عربته فيلقى عليه أحد أبناء البلد من عابرى السبيل التحية فلا يلتفت إليه ولا يرد عليه.

وعندما بنى أحدهم قصره فى شارع قوله بجوار بيت الحاج الكبير، أراد أن يعزل القصر عزلا تاما عن بيت هذا الرجل البلدى، فبنى جدارا عاليا يبلغ ارتفاعه أربعة أو خمسة أمتار فحجب الشمس والهواء عن بيت الرجل مما أثاره فحاول بجميع الطرق الودية أن يتفاهم مع الباشا ولكن بلا جدوى.

وكان من عادة الخديوى توفيق أن يركب عربته ويذهب إلى محطة باب اللوق ليركب القطار إلى حلوان حيث كان له قصر هناك أصبح الآن مدرسة حلوان الثانوية، وكانت محطة باب اللوق فى ذلك العصر تسد شارع قوله، وكانت نهاية خط السكة الحديد عند ميدان الفلكى.

وانتظر الحاج الكبير موكب الخديوى توفيق القادم من قصر عابدين إلى محطة باب اللوق وذبح أمامه فى وسط شارع قوله جاموسة وقف حولها الجزارون فتوقف الموكب الخديوى وأطل توفيق ليرى ماذا يحدث واستدعى إليه الحاج الكبير ليعرف منه السبب فى ذبح هذه الجاموسة أمام الموكب، فقال له أنه يذبحها احتفالا بالخديوى وسيوزع لحمها على الفقراء، ثم أشار إلى الجدار الذى بناه الباشا فسدّ على بيته منافذ الشمس والهواء وقال للخديوى.

– هل يرضى أفندينا أن يقوم أحد باشواته بسدّ منافذ الشمس والهواء عن بيتى؟ فالتفت توفيق إلى المكان وأصدر أمرا بهدم الجدار ثم مضى فى مركبه إلى محطة باب اللوق.

وكان فى حى عابدين منذ أنشأ الخديوى إسماعيل القصر طوائف من العمال يقومون على خدمة قصر عابدين ومنهم نجارون ونقاشون ومنجدون وغيرهم من طوائف الصناع. وكان من العادات المرعية استبدال بعض ستائر القصر ومشّاياته وغيرها من الأشياء المستهلكة كل عام فى فترة سفر الخديوى إلى الإسكندرية فى الصيف، وقد ظلت هذه العادة متبقية حتى عهد فاروق فكان شيخ المنجدين يبيع هذه الأشياء للأهالى حتى أصبحت البيوت فى الحى تفرش بالبسط الخضراء وتوضع فيها الستائر الثمينة التى تخرج من القصر ويتم استبدالها بغيرها.

وفى هذه الفترة دخلت فى بيوت بعض أبناء البلد من القادرين صنابير الماء ومواقد غاز الاستصباح، وأقيمت أبنية على الطراز الأوربى لها نوافذ تفتح وتغلق ولها شرفات أو بلكونات ذات أسوار حديدية مشغولة ودرابزينات حديدية أنيقة لسلالم البيت، وكانت البيوت القديمة لها مشربيات أو نوافذ لا تفتح بل ترفع إلى أعلى، وليست لها شرفات تطل على الشارع. وعندما بنيت هذه البيوت كان يسكنها الأجانب مع أن أصحابها كانوا من المصريين الذين يرفضون أن تظهر نساؤهم فى الشرفات أو النوافذ، ثم تطورت الأمور وسكن بعض المصريين فى هذه الشقق وكان من عادتهم قبل ذلك أن يسكنوا فى بيوت من أبوابها كما يقولون، فلا يشاركهم أحد فى البيت.

وقد أضيئت شوارع الحى وحواريه بمصابيح الغاز منذ عهد إسماعيل، وكان يضىء هذه المصابيح قبل الغروب ويطفئها بعد الفجر طائفة من العمال يحملون فى أيديهم عصيا طويلة فى نهايتها شعلة لإضاءة المصابيح. وكانوا يجرون جريًا وكأنهم فى سباق، وقد أطلق أهل القاهرة على العامل

، من هؤلاء اسم عفريت الليل، وكان الأطفال يغنون لهم أغنية مشهورة مطلعها.

عفريت الليل بسبع رجلين.

وأقيمت فى أماكن ظاهرة عند نواصى الشوارع صنابير كبيرة للمياه، وإلى جانب كل صنبور كشك صغير يجلس فيه رجل يغلق الصنبور ويفتحه حسب الحاجة، وكان فى القاهرة خمسون صنبورا من هذا الصنابير الكبيرة التى أطلقوا عليها اسم (الحنفية البلاشى) لأن الناس كانوا يأخذون منها ما يحتاجون إليه من ماء بلا ثمن حتى أصبحت طوائف السقايين التى تحمل الماء من نهر النيل فى القرب بلا عمل، واضطر كثيرون منهم إلى ملءقربهم من هذه الحنفيات البلاشى. وكانوا يقفون بقربهم عند أبواب المساجد أو فى أماكن تجمع الناس ومعهم كاسات نحاسية ليسقوا العطاشى، وكان لهم نداء موحد معروف هو.

- ميه يا عطشان اشرب.

- وكان بعض الناس يعطونهم الملاليم صدقة من أجل شربة ماء. وكان بعض هؤلاء السقائين يرشون الماء من قربهم أمام الدكاكين فى الصيف لقاء ملاليم يدفعها صاحب الدكان.

وقد ألّف سيد درويش لحن السقايين الشهير إشفاقًا على هذه الطائفة التى كانت فى طريق الاندثار، وقد حلت محلها طائفة من النساء كن يملأن صفائح الماء من الحنفية البلاشى ويحملنها إلى البيوت التى لم يستطع أصحابها توصيل مواسير المياه إلى بيوتهم، وأصبحت هذه الطائفة من النساء تشكل عنصرًا أساسيًا فى حياة الأحياء الشعبية فى القاهرة. وكن يستخدمن صفائح البترول الفارغة فى نقل الماء إلى البيوت، وكانت

الواحدة منهن يطلق عليها اسم الملاية. أى التى تملأ الماء حتى أصبحت هذه الملاّية من أصحاب الحرف الجديدة فى هذا المجتمع وهى حرفة توصيل المياه إلى البيوت بدلاً من السقايين الذين كانت لهم حارة مشهورة فى عابدين مازالت تحمل هذا الاسم، وهى ليست حارة واحدة ولكنها مجموعة حارات يضمها مكان واحد وبداخلها كنيسة للأقباط ومدرسة لهم تعلم فيها بطرس غالى باشا الذى تولى رياسة الوزارة فى مصر، وفى هذه الحارة عاش (وليام لين) المستشرق الإنجليزى الشهير صاحب كتاب (العادات والتقاليد عند المصريين المحترفين) وكانت فى هذه الحارة المطبعة اليدوية لطباعة الكتب الطبية التى أنشأها الدكتور محمد درى باشا لطباعة كتب الطب الذى كان يُدرس باللغة العربية فى مدرسة الطب بقصر العينى فى عصر إسماعيل فأنشأ الدكتور درى باشا هذه المطبعة فى حارة السقايين لهذا الغرض.

ومن النوادر اللطيفة فى حكاية السقايين أن الخديوى إسماعيل أراد صنع تمثال لمحمد بك لاظ أوغلى رئيس وزراء جده محمد على، وكان لاظ أوغلى من دعائم دولة محمد على، فلم يجدوا صورة مرسومة لمحمد بك لاظ أغلى يشاهد فيها المثال الفرنسى ملامحه ليصنع التمثال، ثم رأى محافظ القاهرة سقاء فى خان الخليلى يشبه لاظ أوغلى.. الخالق الناطق كما يقول أهل القاهرة، فأخذه إلى هذا المثال الفرنسى وقال له إن هذا الرجل هو (محمد بك لاظ) فصنع تمثالاً للسقاء، وأصبح تمثال لاظ أوغلى فى ميدانه الشهير فى قلب القاهرة هو تمثال سقاء من حارة السقايين التى تبعد خطوات عن ميدان لاظ أوغلى.

أنا لا أريد أن أحدثك عن المشاهير من جيران الخديوى إسماعيل

ولكننى مضطر إلى الحديث عن اثنين منهم هما محمد شريف باشا وإسماعيل صديق باشا أو إسماعيل المفتش كما اشتهر فى التاريخ.

وشريف باشا كان له قصر هائل فى شارع عبد العزيز وقد هدم وأقيم مكانه حى كامل به عمارات ودكاكين ومصانع واسمه اليوم أرض شريف.. وله أيضًا شارع مشهور فى قلب القاهرة.

أما إسماعيل المفتش فهو صاحب القصور التى مازالت قائمة فى ميدان لاظ أوغلى، وكانت حدائقها تمتد حتى شارع المبتديان، وقد رفضت مصلحة الآثار هدمها وستقوم بترميمها، وكان إسماعيل المفتش أخا لإسماعيل الخديوى فى الرضاع، وسمى باسمه، وتولى المناصب الرفيعة مفتشًا للوجه البحرى ومفتشًا للوجه القبلى ثم مفتشًا لعموم الأقاليم ووزيرًا للمالية، وأصبحت الخزانة فى جيبه أو فى خزائنه وله قصص خرافية لا يصدقها عقل.

وقيل إنه فرش قاعة الزيارات فى قصره بالريالات الذهبية، وقيل إنه كان فى قصره جب عميق يتصل بنهر النيل وكان يغرق فيه اعداءه، ثم أغرقه الخديوى إسماعيل عند كوبرى قصر النيل وربطه ابناه الأمير حسين والأمير حسن فى حجر ثقيل بحبل غليظ حتى لا تصعد جثته إلى سطح النهر.

هذه حكايات مشهورة ومنشورة فى الكتب وأنا أريد أن أحدثك عن الحكايات المجهولة والشخصيات المجهولة.

عربات زينب هانم

اشتهرت الأميرة زينب هانم ابنة الخديوى إسماعيل بمغامراتها التى يرويها الرواة، ويجعلون من الحبة قبة كما يقول المثل العامى. ومن الهوايات التى يحبها بعض الناس ترديد الإشاعات والتلذذ بإضافة قصص وحكايات تؤيدها أو تجعل السامع يتساءل عنها.

وقد تعرضت زينب هانم لهذه الإشاعات كما تعرض والدها الخديوى إسماعيل لأمثالها. وكان السلاح الذى روجت له الإشاعات عند زينب هانم هو الجب الذى تقتاد إليه عشاقها، كما كان عند الخديوى إسماعيل فنجان القهوة المسموم الذى ينهى به حياة أعدائه أو معارضيه، وقد رويت عن الخديوى غراميات غريبة وعجيبة لا يصدقها العقل، ولا يمكن لرجل فى مثل سلطته وشهرته أن يمارسها، ولم يكن هو شخصيًا فى حاجة إلى ممارستها، كما أن ابنته زينب هانم لم يكن فى استطاعتها أن تمارس فى مجتمع مغلق مثل المجتمع المصرى حينذاك مايرويه الرواة حول هذا الموضوع.

وكان أهم شىء اشتهر عن هذه الأميرة هو عربتها المغلقة الأبواب ذات الستائر المسدلة التى اشتهرت فى القاهرة باسم عربة زينب هانم.

وقد أعجب رجل من أهل عابدين بهذه العربة وهداه تفكيره إلى

عمل كان من أنجح المشروعات فى أيامه فبدأ (الحاج حنفى قصته) يراقب عربة زينب هانم أثناء جولاتها فى شوارع عابدين أو عبورها عند كوبرى قصر النيل عندما تتجه إلى قصر الجزيرة أو تعود إلى قصر عابدين، ثم ذهب إلى صناع العربات فى باب الخلق وباب الشعرية، وشاهد عربات الحنطوُر وعربات الكارو التى يصنعونها حتى استقر رأيه على واحد منهم وأحضره معه ليشاهد عربة زينب هانم. ويصنع له عربة مثلها أو تشبهها وتم صنع العربة واشترى لها الحاج حنفى حصانًا أبيض جميل الشكل ثم وضع العربة والحصان على باب الحارة ذات يوم فتعجب الناس من قلة عقل الحاج حنفى، وقالوا: ماذا يصنع هذا المجنون بهذه العربة والحصان؟

وكان المعلم فرحات صاحب قهوة العنبة أشد الناس استغرابًا وتعجبًا مما فعله الحاج حنفى، فذهب إلى حارته وشاهد العربة والحصان وهو يقول:

- الحاج حنفى عاوز يعمل خديوى.. لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وأخيرًا صرح الحاج حنفى بأنه أعدّ هذه العربة لزفاف العرائس من بنات الطبقة القادرة فى عابدين وما حولها من أحياء وبدأ المعلم فرحات القهوجى يروج فى قهوته لهذه الأفكار.

ولم يمض أسبوع حتى تم زفاف عروس من بنات أحد التجار فى حى عابدين إلى عريسها فى حى المنيرة واستخدمت عربة زينب هانم فى هذا الزفاف.

كان الحاج حنفى يتقاضى خمسة جنيهات ذهبية أجرًا للعربة والحصان فى مشوار الزفة أما العربجى الذى كان يحضره لهذا الغرض وهو أحد

عربجية الحنطور فلا شأن له بأجره، بل إن صاحب العرس يمنحه الوهبة وهى ليست أجرًا محددًا ولكنه مبلغ من المال يتناسب مع صاحب الفرح ومكانته لا مع أجر العربجى، وهى مثل النقوط الذى يمنح للعالمة أو الراقصة فهو مبلغ من المال يخرجه صاحبه ليعبر به عن مكانته الاجتماعية أو قدرته المالية.

وبدأت زفة العرائس فى عربة زينب هانم تأخذ شكلاً خاصا فى ذلك الوقت، فكانت العروس تركب فى هذه العربة مع أمها وأخواتها وقريباتها اللاتى تسعهنّ مقاعدها، ثم يبدأ الركب فى التحرك من منزل العروس إلى بيت العريس مخترقًا الشوارع التى يختارها أصحاب الفرح، وقد يمرون فى شوارع أو أحياء لأن العروس يجب أن يمر موكب زفافها أمام بيت عمتها أو خالتها، أو أمام جامع السيدة زينب ولذلك كانوا ينظمون الزفة تنظيمًا دقيقًا قبل تحركها.

وكان من العادات أن يتقدم فتوة الحىّ هذا الركب، فإذا دخل إلى حى آخر له فتوة آخر لابدّ أن ينسحب ويسلم القيادة لفتوة هذا الحى ويسير خلفه وقد أمسك عصاه فى يده ليرفع فتوة الحى الآخر عصاه إلى أعلى وإذا حدث صدام بين الاثنين فإن زفة الفرح تنقلب إلى معركة ويتبعثر الفرح وأصحابه، وقد حدث هذا فى حالات قليلة جدًا لأن من عادة أولاد البلد المجاملة وهم لا يحبون إفساد الأفراح أو قلب الفرح إلى غم مهما كانت الأسباب، ولو حدث هذا فإنه يحدث فى الحالات النادرة وفى ظروف خاصة جدا.

وقد كان فتوة عابدين أو آخر فتوات هذا العصر رجلا اسمه (أمين المالطى) وقد سمى بهذا الاسم لأنه نفى ذات مرة إلى مالطة بسبب كثرة

تعدياته التى لم يتمكن القنصل البريطانى فى القاهرة من حمايته بعد كثرتها، وقد كان أمين هذا يتمتع بالحماية الإنجليزية أيام الامتيازات الأجنبية ولا يستطيع البوليس المصرى التصرف معه إلا فى حضور القنصل البريطانى أو من ينوب عنه فإذا أخذه القنصل فى يده وخرج به من قسم عابدين لا يستطيع مأمور القسم أن يمنعه من ذلك وإلا فإنه يكون قد اعتدى على هيبة بريطانيا العظمى.

ولما كثرت جرائم أمين اضطرت دار المندوب السامى البريطانى إلى نفيه إلى مالطة. فأمضى فى المنفى عدة شهور ثم عاد مرة أخرى إلى القاهرة ولقب نفسه بهذا اللقب، وكان يتباهى بأنه نفى إلى مالطة كما نفى الزعيم سعد زغلول إليها.

وكان أمين المالطى يجوس فى شوارع حى عابدين وحاراته مرتديًا جلبابه الأبيض الناصع وطاقيته البيضاء وبلغته البيضاء أيضًا وليس فى يده عصا. ولكنه فى زفاف العرائس كان يحمل عصاه وهى عصا من الشوم التى كان يستخدمها عساكر بلوكات النظام فى الجيل الماضى، وهذا الشوم خشب غير قابل للكسر ومازال بعض الناس يستخدمون هذه العصى فى الصعيد.

وكان للفتوة نصيب فى كل شيء من الأطعمة والحلوى والملابس كما كان يمنح الوهبة المناسبة أيضًا من صاحب الفرح ومن العريس وأقاربها.

وأما موكب الفرح الذى كان يتقدم عربة زينب هانم فكان فى مقدمته مع فتوة الحى (النقرزان) الذى كان يتكون من شخصين يرتديان السراويل والصدار والطاقية الإسكندرانية والسروال الإسكندرانى وهو طويل يصل إلى ما فوق القدم، منفوخ حول الساقين والفخذين وفوقه

صدار قصير يصل إلى الحاجز، وكان أحد الرجلين فى فرقة النقرزان يحمل طبلة صغيرة يدق عليها دقات لها نغمة خاصة تحدثها قطعة من الجلد السميك، أما الرجل الآخر فكان يحمل عصا طويلة فى نهايتها كرة من الفضة. وكان يتراقص فى عرض الطريق بعصاه فى حركات منتظمة تتناسب مع نغمات الطبلة التى يدق عليها صاحبه بهذا السير الجلدى السميك.

وخلف النقرزان كانت فرقة الموسيقى بآلاتها المختلفة التى كانت تعزف فى الغالب لحناً معروفاً عند أولاد البلد يطلقون عليه اسم (سلام) أو (سلام مربع) وهو نغمة موسيقية شائعة مازالت موجودة حتى اليوم.

وكانت فرق الموسيقى هذه موجودة فى شارع محمد على وأشهرها فرقة (حسب الله) المعروفة، ولكن كانت هناك عشرات مثلها وكل فرقة لها دكان فى مواجهة حارة العوالم وكانوا يعلقون أدوات الموسيقى وملابس الفرقة على جدران الدكان، ويكفى أن تلقى نظرة على الدكان لتعرف قيمة الفرقة من أشكال ملابسها المعلقة على الجدار وآلاتها الموسيقية المعلقة أيضاً، وكانت الغالبية من هذه الفرق تستدعى العازفين عندما يرزقها الله بفرح من الأفراح لأن أعمالها لم تكن منتظمة فكان العازفون يعملون فى أعمال أخرى لكسب العيش ومنهم القهوجية والصنايعية فى مختلف الحرف ومنهم أيضاً من لا حرفة له ويشتغل يبيع أوراق اليانصيب أوالسميط والبيض أويسرح لالتقاط رزقه فى القهاوى والمشارب أوفى مسح الأحذية أو تلبية طلبات الزبائن أو المساعدة فى كنس ونظافة هذه الأماكن ممن يطلقون على أنفسهم اسم (الأرزقية) أى الذين يطلبون الرزق من أى عمل لأنهم لا عمل لهم.

وكان أصحاب هذه الفرق الموسيقية فى شارع محمد على يدربون من هؤلاء الأشخاص من يصلح لهذه الموسيقى الناقصة فى دق الطبول والنفخ فى الأبواق وما يشبه ذلك، ويعرفون أماكنهم فيبعثون لاستدعائهم فى المناسبات.

ومن أغرب المشاهدات التى رأيتها أن بعض أصحاب هذه الفرق كانوا يملكون الملابس الرثة أو غير الرثة وهى ملابس مقصّبة تصلح للموسيقيين فى هذه الفرق، ويملكون الطرابيش ولكنهم لا يملكون الأحذية، فكانوا يلبسون أفراد الفرقة الملابس وهى البنطلون والجاكتة المزركشة ويتحايلون على مقاساتها حسب أجسام أفراد الفرقة فى كل مناسبة، ثم يضعون على رءوسهم الطرابيش، ولكنهم لا يضعون فى أقدامهم أحذية، وكان معظمهم يرتدون الجلاليب ويمشون حفاة ومنهم من يضع فى قدميه بلغة أو شبشبًا. وكان الحل فى هذه المشكلة أنهم كانوا يطلون أقدامهم الحافية بالورنيش الأسود حتى تبدو وكأنها فى حذاء.

وقد كان الحفاء من الظواهر المخجلة فى القاهرة وغيرها من المدن حتى أن الحكومة فى الأربعينات أعدت مشروعًا كان اسمه (مشروع مقاومة الحفاء).

أما الحاج حنفى صاحب عربة الزفاف التى أطلق عليها اسم عربة زينب، فقد كثرت عرباته وأصبح يملك خمس عربات من هذا النوع واشتهر أمره فى حى عابدين بل وفى جميع أحياء القاهرة وذاع صيته وكثرت أمواله... ثم حدث تغير فى المجتمع وانتهى كل شيء.

لم يعد الناس يطلبون عربات زينب هانم لزفاف عرائسهم، فباع الحاج حنفى الخيل ووضع العربات فى عربخانة مجهولة وانتهت قصة من قصص القاهرة.

الأفيون وكتب الفساد

كان دكان عبد الله مجاورًا لبيتنا بعد بيت واحد، وهو يبيع ألواح الإردواز وأقلامها وغير ذلك من أدوات الكتابة، وعندما كنت طفلاً أكتب على لوح أسود له إطار خشبى أسود اسمه الأردواز وكان له قلم خاص رفيع ولونه أبيض، ويمكن محو الكتابة من اللوح بقطعة من القماش حين تندى بالماء ولكن هذا اللوح كان ينكسر منى فى كثير من الأحيان بسبب الشقاوة وقد يكسره صبى من زملائى فى الكتاب الذين كانوا يكتبون على ألواح الصفيح بالمداد الأزرق بسبب الحقد على لوح الإردواز.

وكلما انكسر لوح كنت أشترى لوحًا غيره من عبد الله بقرش واحد، كما كنت أشترى منه الأقلام التى تكتب على هذا اللوح الذى علمنى القراءة والكتابة وعاش معى منذ كنت فى الرابعة من عمرى، وعندما كبرت قليلاً وأصبحت فى السادسة وأوشكت أن أصبح تلميذًا فى مدرسة ابتدائية، وطالت قامتى رأيت فى دكان عبد الله ميزانًا صغيرًا له غطاء زجاجى وكفتان من النحاس اللامع ودعانى عبث الطفولة إلى سؤاله عن هذا الميزان الصغير الذى أعجبنى، فقال لى عبد الله.

– هذا ميزان الأفيون.

ولم أفهم شيئًا ولكننى كنت أشترى من عبد الله فى بعض الأحيان

ثمرتان من ثمار الخشخاش بمليم وأتلذذ بأكل حباتها التى فى داخل الثمرة. وكانوا يطلقون على هذه الثمرة اسم (أبو النوم) وكان الأطفال فى جيلنا يشترونها ويأكلونها مثل الحمص وبراغيت الست وعلى لوز والتفاح المصبوغ بالحلوى الحمراء وفى كل تفاحة عصا وغيرها من الحلوى والمسليات التى تعجب الأطفال.

كان عبد الله يبيع لنا (أبو النوم) كل اثنين بمليم وكان طه يبيع لنا الحمص والفول السودانى فى قراطيس ورقية القرطاس بمليم أيضًا. كما كان يبيع لنا قرطاس براغيت الست وهى حلوى صغيرة فى قرطاس صغير أو (على لوز) وهو ملعقة واحدة من الحلوى بها لوزة واحدة فى طبق من الصينى أو التفاح المغلف بالحلوى الحمراء بمليم واحد لكل من هذه الأشياء.

وكانت دكان عبدالله شبه مظلمة ويغلب عليها اللون البنى الذى يزيد من قتامتها، أما دكان طه فقد كانت مشرقة مبهجة يغلب عليها اللون الأبيض، كما كان عبد الله رجلاً كئيبًا ضامر الجسم ترابى الوجه عيناه تبرقان ببريق غريب وسحنته مكبوتة ويتكلم بصعوبة، وإذا تكلم فإن ألفاظه تكون حادة قاسية وكأنه فى غضب دائم على الحياة والناس، على عكس طه الذى كان وجهه مشرقًا ضاحكًا على الدوام، وكانت معاملته لطيفة مع زبائنه من الأطفال الذين يتعاركون أحيانًا على باب دكانه فيتدخل ويصالحهم ويرضيهم وقد يمنح كلا منهم قرطاس حمص أو فول سودانى أو قطعة حلوى من الفولية أو الحمصية حتى تهدأ أنفسهم.

وذات يوم مرض أحد أفراد أسرتنا ورقد فى السرير وقالت لى جدتى:

– خذ هذا القرش واشتر به أفيونا من عبد الله.

وذهبت إلى عبد الله وقلت له إن جدتى تطلب أفيونًا بقرشٍ صاغ، فدخل فى الدكان وأحضر ورقة مفضضة صغيرة ووضع فيها شيئًا داكن اللون ووزنها فى ميزانه الصغير ثم طواها وأعطاها لى بعد أن أوصانى بالمحافظة عليها وقال لى:

- قل للست عبد الله بيسلم عليكى.

وعدت إلى البيت وأعطيت الورقة المفضضة لجدتى بعد أن أبلغتها سلام عبد الله فضحكت وقالت:

- الله يخيبه.

ثم أحضرت ليمونة شقتها نصفين ووضعت على كل نصف منها قطعة من الأفيون، ثم وضعتها على نار هادئة فوق وابور السبرتو الذى كانوا يصنعون عليه القهوة، وذهبت إلى غرفة المريض أو المريضة لا أذكر، ووضعت كل نصف ليمونة فوق صدغه وربطتها بمنديل فوق رأسه وهى تقول.

- بالشفا بإذن الله.

وكان المريض مصابًا بصداع حاد ولا ينام منذ ليلتين فنام فى هذه الليلة، وفى الصباح ذهب الصداع.

أنا لا أعلم ماذا حدث، ولكننى قرأت بعد ذلك أبحاثًا عن علم مصرى قديم موروث اسمه (طب الركّه) وكان الدكتور عبدالرحمن إسماعيل قد ألف كتابًا بهذا الاسم فيما بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٤ تناول فيه الطب الشعبى والطب الحديث فى مصر، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية وطبع فى لندن سنة ١٩٣٤.

ويبدو لى أن الأفيون كان مباحًا من أجل الاستخدام فى الأغراض التى قالتها وصنعتها جدتى لا للتعاطى والإدمان، ولكنى لا أعلم لماذا كان الحشيش مباحًا فى ذلك الوقت وقبل ذلك أيضًا، وقد تكون هناك أسباب طبية أو سيكولوجية أو دينية، ولكننى أستبعد كل ذلك .

أما صديقنا عبد الله بائع الأفيون فقد كان يبيع الكتب أيضًا وقد أصبحت من زبائنه بعد أن عشقت القراءة عندما كنت تلميذًا فى مدرسة عابدين الابتدائية وكان مقرها فى بيت الزعيم مصطفى كامل حيث توجد مدرسته حتى اليوم وهو قائم فى شارع نوبار أمام مبنى وزارة الداخلية.

كان عبدالله يبيع كتبا رخيصة بمليمين أوخمسة ملاليم على الأكثر، وهى كتب صغيرة.. رديئة الطبع قد يبلغ حجم الكتاب منها ٣٠ صفحة أو ٦٠ على الأكثر ولها غلافات من الورق الرخيص ولكنها تحوى بعض قصص الأدب الشعبى مثل ناعسة الهلالية والزير سالم وحكاية (الأميرة ذات الهمة وغيرها مما استخلص من السير الشعبية المعروفة وفيها أيضًا كتب تهتم بالجنس ولا تخجل من ذكر أى شىء عنها.

وقد أغرانى حب القراءة بشراء كثير من هذه الكتب من عبدالله ثم ازداد الإغراء فكنت أبحث عنها عند باعة هذا الصنف من الكتب على الأرصفة حتى كوّنت لنفسى مكتبة خاصة منها كتب كنت أخفيها وأنا صبى فى الكومودينو داخل غرفة نومى وأقرؤها أحيانًا فى الليل وأحيانًا فى النهار. خوفًا من أن يراها والدى، وعندما رآها أخذها منى وأعطانى رواية لتولستوى وطلب منى قراءتها ثم أعطانى كتابًا من تأليف (محمود طاهر لاشين) كان عنوانه (يحكى أن) فأحببت هذه الحكايات أو القصص ولكنى حزنت على فقدان الكتب التى اشتريها من عبد الله أو الرصيف

التى وصفها والدى بأنها كتب الفساد... وقد كان وصفه بهذا الوصف لكتب الجنس مثل كتاب (جحا وأبو النواس) وكتاب (هارون الرشيدى والجارية البيضاء).

ولكن هذه الكتب كانت تشكل جزءًا هاما فى ثقافة هذا العصر.

الأفيون والحشيش وكتب الفساد كانوا يهربون بها من الواقع المر..

شيخ المزينين

كان الشيخ حنفى من أشهر شخصيات الحى، فهو شيخ المزينين وهو صاحب الدكان الأنيق الذى وضع على بابه ستارة من الخرز الملون وبداخله عدد من المرايا الثمينة وبه كرسى واحد من كراسى المزينين يتوسط هذه المرايا. وكان عنده صبى واحد كل وظيفته أن يمسك بيده منشة من الخوص يهش بها الذباب إذا حاول أن يقترب من وجه الزبون، وفى الصيف كان يمسك أيضا مروحة من الخوص ليهوّى بها على وجه الزبون.

ولم يكن الشيخ حنفى هو المزين الوحيد فى الحى بالطبع، فقد كان هناك مزينون كثيرون بعضهم من أصحاب الجلاليب وبعضهم ممن يرتدون الملابس الإفرنجية وهؤلاء لهم دكاكين أطلقوا عليها اسم صالونات الحلاقة، وكان هؤلاء جميعا يحملون لقب الأسطى على خلاف الشيخ حنفى الذى تميز بينهم بلقب شيخ الذى التصق باسمه حتى أنه لم يكن أحد يناديه باسمه إلا مقرونا بهذا اللقب فلا يقال إلاّ : الشيخ حنفى المزين.

وكانت الألقاب المتداولة فى هذا الزمان هى لقب الشيخ والمعلم والأسطى، كما كان بعض أصحاب الحرف أو التجار يفاخرون بلقب الحاج. وكان بعضهم عندما يؤدى شعائر الحج يحضر معه وثيقة من شريف

مكة تشهد بأنه أدى هذه الشعائر، وكانوا يعلقونها على الجدار فى بيوتهم داخل إطار مذهب.

على أن لقب الشيخ لم يكن قاصرا على علماء الدين أو قراء القرآن الكريم لأن كل طائفة من الطوائف كان لها شيخ، كما كان لكل حارة شيخ فكان هناك شيخ الحارة وشيخ البلد، ولقب الشيخ من الألقاب المحببة عند المصريين حتى فى عالم الطرب والغناء والتلحين وقد اشتهر بهذا اللقب الشيخ سيد درويش والشيخ زكريا أحمد وآخرهم الشيخ سيد مكاوى.

وكان فى حيّنا أفراد من كبار الحرفيين أو التجار يحملون هذا اللقب ومنهم الشيخ حنفى المزين أو شيخ المزينين الذى أحدثك عنه، وكان منهم الشيخ حامد تاجر الخردوات والشيخ سيد البنان تاجر البن.

أما الشيخ حنفى فقد كان رجلا متوسط الجسم ضامرًا مليح الوجه، وكان يرتدى الجبة والقفطان والعمامة والمركوب الأحمر، لأن المركوب الأصفر كان مخصصا لعلماء الأزهر الشريف وهو ليس مصفرا كما تتخيل، ولكنه فى لون يقرب من الأصفر، أو بين البنى والبيج الفاتح كما نعرفه الآن وكان مركوبا يشبه الحذاء المفتوح بلا رباط يربطه حتى يسهل خلعه عند دخول المسجد أو الاستعداد للوضوء.

أما المركوب الأحمر فقد كانت له أشكال مختلفة تميزه وقد وضعه (محمد على باشا) فى قدميه كما كان خدمه وحاشيته أيضا يضعونه فى أقدامهم، ولكن مركوب الباشا كان يختلف عن مراكيب الحاشية والخدم من ناحية نوع الجلد والصنعة حتى لو اتحدت فى الشكل.

وكان أبناء البلد من عامة الناس يضعون فى أقدامهم البلغ، والبلغة

نعل أصله مغربي، وكان يبيعها في ذلك العصر تجار المغاربة في حارة الفحامين، بالغورية.

ومازالت البلغة من النعال التي يستخدمها المغاربة حتى اليوم بل إنها تكمل الزى الرسمى في المغرب وقد عرفها أهل مصر عن طريق المغاربة.

كل هذا الكلام سببه الشيخ حنفي المزين، والذى كان لا يذهب إلى دكانه إلّا أعيان الحى لأن غيرهم كانوا يذهبون إلى دكاكين المزينين الآخرين الذين كانوا يحلقون رأس الرجل بقرش واحد، بينما كان الشيخ حنفي لا يقبل أقل من خمسة قروش، وكان أصحاب صالونات الحلاقة يقبلون قرشا ونصف قرش.

وكان للشيخ حنفي حمار فاره يستخدمه في الصباح الباكر قبل أن يفتح دكانه وبعد أن يغلق دكانه.

وفى الصباح الباكر كان يذهب إلى بيوت بعض الأعيان ليحلق ذقونهم ويسوى شواربهم كل يوم ويقص شعورهم كلما احتاجوا إلى ذلك مقابل أجر شهرى ثابت، وكان هؤلاء الأفراد معدودين وهم يمثلون الطبقة العليا من أبناء الطائفة الشعبية وكان عددهم لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة، وهم من رؤساء العائلات المعروفة في الحى الذين لا يجوز لهم أن يجلسوا على كرسى المزين في الدكان بسبب وقارهم الخاص حتى أن الناس كانوا يقفون احتراما لهم عندما يمرون عليهم تأدبًا لهم.

وكانت الحركة تدب في بيوت هؤلاء الأشخاص بعد صلاة الفجر حيث تقوم ربة البيت بالإشراف على إعداد طعام الإفطار الذى كانوا يهتمون به اهتماما كبيرا، وكانت أصنافه معروفة لا تتغير وإن كانت لا تقدم في كل صباح ولكن بعضها كان مقررا مثل الفول المدمس والبيض واللبن،

وقد تتلطف ربة البيت فى بعض الأيام فتضع الفطائر بالسمن البلدى أو تقدم الفطير المعجون باللبن والسمن، وكان يقدم على المائدة أيضا الجبن والعسل الأبيض وبعض أصناف المربى حسب مواسم الفاكهة. وكان أشهرها مربى المشمش والنارنج والبرتقال والبلح وهو دائم طوال شهور السنة.

وفى مطلع الصباح كان «الفقى» وهو قارئ يدخل إلى ساحة البيت ويجلس على دكة خشبية كانت تخصص له وكانوا يطلقون عليها (دكة الفقى) وكان هذا القارئ يقرأ بعض سور القرآن ثم يقدم إليه طعام الإفطار فى بيت معروف من بيوت الحى، وكان أصحاب البيوت الأخرى يعرفون أن الفقى تناول إفطاره فى هذا البيت فلا يقدمون إليه إفطارا عندما يذهب إليهم.

أما الشيخ حنفى المزين فكان يذهب بحماره إلى بيوت الأشخاص الذين حدثتك عنهم وكان يضع أدواته فى خرج على ظهر الحمار، وهذه الأدوات كانت توضع فى حقيبة جلدية منفوخة كانوا يطلقون عليها اسم الشنطة المنفاخ، كما كان يحضر معه طستا من النحاس الأصفر اللامع له فتحة على شكل نصف دائرة بحيث يضعها الشيخ حنفى على رقبة الزبون، ويكون الطست تحت رأس الزبون الذى يمسكه بكلتا يديه حتى إذا ما اشتغل الشيخ حنفى بحلاقة الذقن يلقى بالصابون فى هذا الطست النحاسى.

وكانت عملية حلاقة الذقن فى الصباح من العمليات المعقدة التى تحتاج إلى الماء الساخن والموس الخاص بالسيد والمناشف الخاصة به أيضا، وهذه الأعمال يقوم بها أكثر من شخص واحد حتى تتم حلاقة الذقن

وتسوية الشارب، وتغسل الخادمة طست الشيخ حنفى وتجففه وتلمعه. ثم يجلس لتناول إفطاره فى سرعة ولهفة ليحلق بقية الزبائن فى منازلهم، ثم يخرج ويعتلى ظهر حماره ويذهب.

والحمير لها شأن كبير فى حياة المجتمع المصرى فقد كانت وسيلة المواصلات فى القاهرة وغيرها من المدن والقرى، وكان حمار الركوب يتميز على حمار السباخ وهو الحمار الذى كان يحمل السماد البلدى ويستخدمه الفلاحون فى أعمال الزراعة.

أما حمير الركوب فكان منها الحمير الملاكى والحمير الأجرة وكان بعض أصحاب الحمير الملاكى يهتمون بها اهتماما بالغا ويضعون على ظهورها البرادع الفاخرة، حتى كانت صناعة البرادعى أى صنّاع البرادع من أشهر الصناعات فى القاهرة وكانت طوائف البرادعية تعمل فى دكاكينها بشارع تحت الربع عند ميدان باب الخلق، وكانوا يصنعون البرادع الفاخرة من القطيفة لحمير السادة من أبناء البلد، وكان بعضهم من المعلمين المشهورين من الجزارين والفطاطرية والسماكين والكبابجية والبنائين والمبيضين وغيرهم من شيوخ هذه الطوائف يقيمون سباقا للحمير فى أرض المحمدى، التى يوجد فيها ضريح الشيخ دمرداش المحمدى حيث توجد الآن مستشفى الدمرداش وما حولها حتى مشارف مصر الجديدة، وكان سباق الحمير من أشهر المباريات فى القاهرة وكان عند أولاد البلد أهم من سباق الخيل الذى كان يرتاده أبناء الذوات.

ولكن حمار الشيخ حنفى المزين لم يدخل سباق الحمير فقد أعدّه صاحبه لاستخدامه الشخصى فى تنقلاته.

أما حمير الأجرة فقد اشتهرت فى القاهرة منذ أيام الحملة الفرنسية

حتى أن نابليون بونابرت أعد لها مواقف خاصة على نواصى الشوارع وفى الميادين تحدد عدد حمير كل موقف كما جعل لها تسعيرة ثابتة بسبب عراك العساكر الفرنسيين مع الحمارين بسبب أجرة المشوار.

وكان الحمارون هم الذين أطلقوا على يعقوب صنوع لقب (أبونظارة زرقا) لأنه كان يضع على عينه نظارة زرقاء، ثم اشتهر بعد ذلك باسم (أبونظارة) وقد أصدر مجلاته بهذه الأسماء... أبونظارة زرقا.. وأبونظارة.

إن هذا الاستطراد سببه حمار الشيخ حنفى المزين.

زواج عم أحمد

كان زواج عم أحمد مثل قنبلة انفجرت فجأة فى الشارع، فقد ظل هذا الرجل الأسمر النحيل سنين طويلة لا أحد يعرف شيئا عن حياته الشخصية، ولم يحاول جيرانه معرفه شيء من هذا برغم أنهم كانوا يدسون أنوفهم فى حياة الآخرين، وقد اتهموا الأسطى محمود المنجد بتهمة شائنة وزعموا أنه دخل أحد بيوت الأفندية لينجد له فراشه فغازل زوجة الأفندى وقامت بينه وبين زوجته علاقة غرامية حتى أن هذا الأفندى ضبطه فى فراشه مع زوجته فضربه علقة ساخنة وطرده من البيت. ولم يكمل الرواة بقية القصة وماذا حدث بين الزوج والزوجة، وإذا سألهم سائل عن هذا الأمر قالوا له: لا نعلم.. الله أعلم.

وانتشرت هذه الإشاعة بين أهل الحى فأجمعوا على عدم استدعاء المسكين لتنجيد فراشهم وألحفتهم. فأصبح منبوذا، واضطر إلى إغلاق الدكان التى كانت مجاورة لدكان عم أحمد بائع الفول، وانتقل إلى حىّ آخر بعيد لا يعرفه أحد، وقال بعضهم إنه ذهب إلى العباسية. وزعم آخرون أنه سافر إلى الصعيد، وقال ثالث إنه رآه فى الإسكندرية وله دكان هناك فى حى المنشية.

ولكن عم أحمد كان رجلا وقورا من أهل الواحات، وكان يفتح دكانه

بعد صلاة الفجر ويغلقها قبل صلاة العشاء. وكان هذا نظامه فى الصيف والشتاء على السواء.

ولم يعرف أحد أين يسكن عم أحمد فقد كان يغلق باب دكانه عندما يسمع أذان العشاء من الجامع الصغير القريب من الدكان ويذهب للصلاة وبعد أن يصلى يخرج من الشارع الكبير ثم ينطلق نحو مكان مجهول.

وفجأة وبلا مقدمات اشترى ربع البيت المجاور لدكانه من أصحابه الذين عرضوه للبيع وأصبحت له شقة فى هذا البيت أثثها فى يوم وليلة عندما كانت هذه الأمور هينة هنية فى مدينة كالقاهرة، وكان يكفى أن يذهب إلى ميدان العتبة الخضراء ويشترى أثاث الشقة ثم يحمله على عربة كارو وينتهى كل شىء.

وفى اليوم التالى عقد له الشيخ على مأذون الحى على سيدة مجهولة ظهرت فجأة وعرف الناس أنها أرملة سيد القهوجى الذى توفى إلى رحمة الله منذ شهور وبقيت هذه الأرملة مع أمه أى أم سيد حتى تزوجها عم أحمد، وكان الناس يظنون أن هذه الأرملة قد ذهبت بعد وفاة زوجها إلى أهلها حتى ظهرت على المسرح فى تلك الليلة.

كان عم أحمد قد جاوز الستين من عمره عندما تزوج، وليس هذا هو المهم على كل حال. فقد كان أشهر بائع فول فى الحىّ الملكى وهو حى عابدين برغم كثرة هذه الفئة من الباعة وأصحاب الدكاكين أو أصحاب العربات المتنقلة، وكان يعد قدرين من الفول كل يوم، قدرة تعدّ فى الصباح وقدرة بعد الظهر، وكانت له عناية شديدة بإختيار الفول وتنقيته وتنظيفه وغسله، وكنت تراه وقد جلس أمام باب الدكان وقد وضع الفول

الجاف فى صينية نحاسية كبيرة لتنقيته من الشوائب ثم يغسله قبل أن يضعه فى القدر الفخارى الأسود ويضيف إليه العدس الأصفر قبل أن يحمله رجل على عربة ليذهب به إلى المستوقد ثم يعيده إليه ليضعه فى قدرة النحاس اللامع.

وفى تلك الأيام كان معظم عمال النظافة من أهالى الواحات وكانوا يتولون نظافة سلالم البيوت ويحملون القمامة لإلقائها فى المستوقد، وهو مكان النار التى لا تخمد فى حمامات السوق بالقاهرة، وكانت هذه الحمامات منتشرة فى جميع الأحياء ولم يبق منها الآن إلاّ عدد قليل فى بعض الأماكن.

وكانوا يدفنون قدور الفول الفخارية فى رماد المستوقد حتى ينضج خلال ساعات طويلة كما كانوا يستخرجون هذا الرماد الأسود بعد انتهاء اشتعاله ليستخدموه فى عمليات البناء وكانوا يسمونه (القُصْرمِلْ) ويضيفونه إلى الجير والرمل والحمرة أحيانا وهى مسحوق الطوب الأحمر ليصنعوا منها المونة التى يستخدمونها فى البناء قبل انتشار الأسمنت فى مصر. وقد ظهر الأسمنت لأول مرة فى أيام الخديوى إسماعيل واستخدم فى بناء المماشى والجبلايات والقناطر فى قصر الجيزة الذى أصبح الآن حديقة الحيوان.

ومن طرائف عم أحمد أنه كان لا يبيع الفول بأقل من مليمين عندما كان المليم عملة لها قيمة، وكان ثمن الرغيف مليمين ونصف مليم، وحزمتان من الفجل بمليم، وعندما ارتفع ثمنه أصبحت الحزمة الواحدة بمليم كما قال بيرم التونسى فى بعض أشعاره:

يـا بائـع الفجـل . بـالمليم واحـدة
كم للعيـال وكم للمجلس البلدى

إشارة إلى المجلس البلدى فى الإسكندرية الذى كان يحصل الضرائب على كل شيء حتى على حزمة الفجل.

كركور والشيطان

من حكايات الجاحظ أن امرأة جميلة رأته في السوق فعاكسته حتى مشى معها وطلبت منه أن يصحبها إلى دكان صائغ، فدخل معها وجلسا سويا أمام الصائغ الذى قالت له المرأة:

– هذا هو الذى أردتك أن تنقشه لى على الخاتم.

فتأمل الصائغ وجه الجاحظ وقام من مقعده وجلس وهو يتفحصه فى دقة بالغة ويرسم على ورقة، فسأله الجاحظ عما يفعل فقال له:

سألتنى السيدة أن أرسم لها على الخاتم وجه شيطان، فقلت لها: إننى لم أر الشيطان، حتى جاءت بك.

وكان كركور ماسح الأحذية والذى يقوم فى نفس الوقت بإصلاح الأحذية القديمة يحمل وجه شيطان، وكانت دكانه فى الشارع الكبير الذى يسير فيه الترام وهو شارع عماد الدين على مقربة من ميدان عابدين، وكانوا يطلقون على الترام اسم الكهربائية ويحذروننا منه حتى لا تطأ أقدامنا الشريط لأننا لو مست قدمنا هذا الحديد المثبت فى الأرض... سنموت فى الحال ويصعقنا تيار الكهرباء!

ولكننا كنا نضطر ونحن أطفال للذهاب إلى دكان كركور لمسح

أحذيتنا أو إصلاحها وكان هو الشخص الوحيد فى الحى الذى يقوم بهذا العمل.

كان كركور وشريط الترام متلازمين فى تصور الموت فإذا عبرنا الشارع ولم تطأ أقدامنا الشريط الحديدى وجدنا أمامنا وجه كركور فى صفرته وأنفه الضخم وعينيه الحائرتين الزائغتين وخدّيه اللذين يكاد ينطبق أحدهما على الآخر.

وكان قصيرا نحيفا يرتدى ثيابا عليها بقع كبيرة من الورنيش والأصباغ المختلفة الألوان، ومع أن قميصه وبنطلونه كانا مليئين بهذه البقع، فإنه كان يلبس فوقهما مريلة معلقة فى عنقه ومربوطة خلف ظهره وكأنها تحافظ على نظافة القميص والبنطلون أو توهمك بأنها أعدت لهذا الغرض، وهذه المريلة متعددة الألوان ويبدو أنها كانت بيضاء فى يوم من الأيام. وكان حذاؤه ترابى اللون لا تعلم إن كان أسود أو بنيا أو غير ذلك من ألوان الأحذية مع أنه كان يلمّع الأحذية المختلفة الألوان فى براعة وحذق، ويدهن الأحذية الشمواه أو البيضاء فى إتقان بديع.

أما حديثه فكان بالعربية ذات اللكنة الأرمنية التى تخرج حروفها من الأنف. وقد عرفت فى سنى الباكر جنسيات الأجانب فى حيّنا من طريقة حديثهم، وكنا نستطيع معرفة هذه الجنسيات من طريقة حديث أصحابها باللغة العربية فنميز بين اليونانى والإيطالى والفرنسى والتركى عند سماعهم.

وكان الأرمن يشتغلون بصناعات اشتهروا بها وهى التصوير وصناعة الزنكوغراف وصنع البسطرمة وإصلاح الأحذية وتلميعها ومسحها، وكانت لهم مهارة فى كل هذه الصناعات وظهر منهم رسامون على قدر

كبير من الفن، وكان أشهرهم (سانتوس) رسام مجلة السياسة الأسبوعية، وصاحب الرسومات الكثيرة الشهيرة التى كان يرسمها لمقالات الشيخ عبدالعزيز البشرى المعروفة التى سماها (فى المرآة) وكان منهم رسام الكاريكاتير الشهير (صاروخان) كما كان منهم أشهر المصورين الفوتوغرافيين فى ذلك العصر وهم على قدر كبير فى الفن.

وكانت لهم استوديوهات تصوير فى شارع عابدين وشارع عبدالعزيز وميدان العتبة الخضراء.

أما صناعة الزنكوغراف التى كانت ومازالت مرتبطة بصناعة التصوير الفوتوغرافى فقد كانوا ملوكها حتى عهد قريب.

ولكن كركور كان أعظم الشخصيات المجهولة فى تلك الأيام، وكان بارعًا فى صناعته كما قلت لك.... ولكنه كان مثل الجاحظ يحمل وجه شيطان.

كاتب الخفر

من أشهر الشخصيات المجهولة عبد اللطيف أفندى كاتب الخفر فى محافظة مصر القاهرة... وإياك أن تستهين بهذه الوظيفة الخطيرة.

كان عبد اللطيف أفندى رجلا تركيا قصير القامة متوسط الجسم ليس بالنحيل ولا بالسمين، وكان يرتدى بدلة سوداء فى الصيف والشتاء، ويمسك عصا يدها من العاج لا تفارقه فى ذهابه ومجيئه، وكانت له طريقة خاصة فى تحريك عصاه حين يدفعها إلى الأمام ويعود بها إلى الوراء، وكان فى الشتاء يلف رقبته بكوفية من الصوف فيجعل نصفها خلف ظهره ونصفها الآخر فوق صدره، وكان فى جولاته الليلية لا يسير فى شوارع القاهرة إلاّ وخلفه خفير يحمل فى يده النبوت، وكان الخفراء هم حراس الليل فى القاهرة فى تلك الأيام. ولم يكن خفراء الليل يتركونه سائرًا وحده بل كانوا يسلمونه خفيرا بعد خفير حتى يصل إلى المكان الذى يقصده ثم يراقبونه حتى يعود إلى بيته فى الحلمية الجديدة تحت حراستهم، وقد أعطته هذه الحراسة هيبة ووقارا فى أعين الناس، أضف إلى ذلك طريقته فى المشى بعصاه، وزيه ورأسه المرفوع فى استعلاء مع طربوشه الطويل الذى كان يعوض به قصر قامته.

كان رجلا طيبا ولكنه شديد المراس وصاحب سلطان وتحت إمرته أكثر

من ألف خفير فى القاهرة، وقد سكن فى بيت فى الحلمية الجديدة كان مكونا من طابقين وله فناء واسع فى وسطه شجرة جميز قديمة وبه غرفة للفرن ومخازن وغرف لتربية الدواجن. وكان يقيم فى هذا البيت مع زوجته التى لم تر الشارع منذ تزوجها بل كان يغلق عليها الباب عندما يخرج ويأخذ المفتاح معه، وكان لهذه الزوجة ولد يقيم عند أخواله فى حى المغربلين ولا يسمح له بزيارة أمه إلا فى يوم الجمعة بعد الصلاة عندما يعود عبد اللطيف أفندى من الجامع فيتناول الولد معهما طعام الغداء ويبقى إلى العصر ثم يعود إلى أخواله قبل المغرب فى ضوء النهار.

وكبر هذا الولد حتى بلغ الثامنة عشرة أو أكثر قليلا ولم يستطع الحصول على الشهادة الابتدائية وأصبح شابا وأفنديا فطلبت الهانم أى زوجة عبد اللطيف أفندى منه أن يعينه فى وظيفة فى المحافظة حتى يقوم بالإنفاق على نفسه ولا يصبح ضيفا ثقيلا على إخوتها فى المغربلين الذين كانوا يزورونها فى الأعياد والمناسبات الدينية الكبيرة مثل يوم عاشوراء أو النصف من شعبان أو ليلة رؤية هلال رمضان حيث يبقى عبد اللطيف أفندي فى البيت للاحتفال بهذه المناسبات.

ولم يعرف أحد من أصدقاء عبد اللطيف أفندى ماذا كان يعمل إخوة الهانم زوجته إلّا أنهم من أعيان الأتراك، ولكن بعض هؤلاء الأتراك كانت لهم دكاكين فى حى عابدين وكان أحدهم يبيع البسبوسة وشراب اللوز ولا يبيع غيرهما فى دكانه، وكان يصنع البسبوسة باللوز فى إتقان باهر ويصنع شراب اللوز الفاخر ويضعه فى آنية كبيرة من الزجاج النقى وكان له زبائن من أعيان الحى لأنه كان لا يبيع بأقل من قرش صاغ، وكانت له شهرة ذائعة.

وكان الحاج عمر يبيع سلاطين صغيرة من الأرز باللبن بقرشين للسلطانية الواحدة وكان ينهى أعماله ويغلق الدكان قبل صلاة المغرب، وكان عنده عدد محدود من سلاطين الأرز باللبن.

وكان أحدهم يطوف الشوارع فى الصيف بعربة بيضاء صغيرة مغطاة بقماش الشاش الناصع البياض ليبيع الدندرمة فى قراطيس من البسكويت الهش بخمسة مليمات للقرطاس وكان ينادى على بضاعته فى لكنة تركية قائلا:

دَنْدُرْمَة كايماك... كايماك دندرمَة

وظهر فى حى عابدين رجل تركى يصنع الكحك والغريّبة قبل عيد الفطر، لا يشتغل إلاّ فى شهر رمضان، ثم يغلق دكانه طوال السنة حتى رمضان القادم فيبدأ نشاطه من جديد وكان لهذا التركى زبائن معروفون من أصحاب القصور والأتراك ومن أعيان أولاد البلد أيضا، وكان لا يقبل أن يبيع الكحك والغريّبة لغيرهم مهما كان الثمن وقد ظل هذا الرجل يمارس عمله حتى سنوات قريبة ثم انتهت هذه الصناعة بعد وفاته.

وكان أشهر هؤلاء على الإطلاق صاحب محل حلوى معروف هو الحاج بكير الذى اشتهر بصناعة الملبن المحشو باللوز أو الجوز أو الفستق، كما اشتهر أيضا بصناعة شراب اللوز، والشىء الذى يلفت النظر أنه لازال فى اسطنبول حتى اليوم محل يبيع هذه الأشياء يحمل اسم الحاج بكير الذى كانت له شهرة ذائعة فى القاهرة فى الجيل الماضى.

وكانت الهانم زوجة عبد اللطيف أفندى صاحب شهرة فى صنع صوانى البسبوسة والبقلاوة والبغاشة، وكانت نساء عائلتنا يستعن بها فى هذه الأمور عند إقامة الولائم الكبيرة فكنّ يرسلن إليها المواد الأولية من

الدقيق والسمن والسكر والجوز واللوز والبندق والفستق وغيرها مع الصوانى الفارغة لتعود إليهن هذه الصوانى وهى ملآنة بهذه الحلوى.

وكانت بعض السيدات الكبيرات من عائلتنا يقمن بزيارتها بعد الاتفاق مع زوجها على المواعيد عن طريق أزواجهن، ولكنها كانت لا ترد الزيارة أبدا، لأن زوجها لا يسمح لها بالخروج من باب البيت ولم تعرف هؤلاء النسوة اسمها وكن يقلن إنها زوجة عبد اللطيف أفندى مع أنها كانت تعرف أسماءهن وكن يحملن لقب الست أو الحاجة ولا يحملن لقب الهانم، بل كانت نساء هذه الطبقة الشعبية يأنفن من هذا اللقب ويعتبرنه إهانة لأصولهن المصرية لأن بعض النساء التركيات كن يتعالين عليهن ويشمخن بأنوفهن مع أن بعض نساء هذه الطبقة الشعبية كن فى بعض الأحيان من أصول أو جذور تركية أو شركسية ولكنهن اختلطن بالمجتمع المصرى عن طريق الزواج وأصبح لهن أولاد وبنات لهم انتماء كامل لمصر.

وقد شاهدت واقعة من هذه الوقائع وأنا صبى صغير فقد كانت إحدى الوصيفات فى قصر عابدين تسكن فى شقة من أملاك سيدة من هذه الطبقة الشعبية وكانت هذه السيدة المصرية من أصل تركى أو شركسى، فقالت لها وصيفة القصر الخديوى إنها فلاحة أثناء مناقشة احتدم فيها النقاش واشتد الغضب، وكانت كلمة فلاح وفلاحة من ألفاظ السباب عند بعض هؤلاء الأتراك فقالت لها السيدة التى كانت تملك عقارات كثيرة فى الشارع ومنها الشقة التى تسكنها هذه الوصيفة:

– أنت خادمة عند الخديوى وأنا ست ولست هانم يا هانم.

فبكت الوصيفة واعتذرت.

ولكن زوجة عبد اللطيف أفندى كانت شديدة الاحترام للستات البلديات اللائى يقمن بزيارتها، وكن يقمن بالواجب فى الزيارة فتسبقهن الشغالات حاملات الهدايا فى كل زيارة طبقا للعادات والتقاليد المتعارف عليها فى هذه الأحوال، وكنت أسمع منهن دائمًا أن الذى يذهب فى زيارة ويده خالية قليل الأصل ولا يعرف الواجب، وكانوا فى الجيل الماضى يطلقون على هذه الهدايا اسم الزيارة ولا يهم أن تكون الهدية ثمينة ولكنها واجبة وقد تكون من فاكهة الموسم الجديدة، بل إن المصريين تعارفوا على هدايا المناسبات مثل هدية الحج وهدية العرس وهدية ختان الأولاد أو البنات، حتى هدايا الموتى فى الخمسات وهى أيام الخميس من كل أسبوع حتى يوم الأربعين، لوفاة الميت كانت لها تقاليد معروفة من الفطائر والجبن والفواكه والورود والأزهار توضع على قبر الميت، وقد ذكر بعض المؤرخين أن المصريين يضعون على قبور أمواتهم فى المواسم والأعياد زهورا وورودا تقدر بآلاف الدنانير.

وكانت زوجة عبد اللطيف أفندى التى لم يعرف أحد اسمها حتى ماتت. سيدة تركية طيبة القلب وكانت شديدة الحنو على ابنها أحمد الذى أنجبته من زوج سابق، وعندما كبر وأصبح شابا كانت تطلق عليه اسم أحمد أفندى وقد تم تعيينه موظفا فى محافظة القاهرة بعد أن تحدث عبد اللطيف أفندى مع الباشا المحافظ فى الموضوع.

ولكن أحمد أفندى أثار مشكلة عكرت على عبد اللطيف أفندى صفو حياته، فقد طلب من والدته شراء دراجة يركبها عندما يذهب إلى المحافظة، وعارض عبد اللطيف أفندى ركوب الدراجة لا شراء الدراجة. فكيف يذهب موظف إلى المحافظة راكبا بسكليتة... هذه إهانة

للوظيفة وللمحافظة وللباشا المحافظ نفسه، وكيف يكون الحال لو شاهد الباشا موظفا فى المحافظة يركب بسكليتة؟

أمان يا ربى أمان..

وقال عبد اللطيف أفندى إن الولد يمكن أن يركب البسكليتة على كوبرى قصر النيل ويلعب بها فى الجزيرة مع الأولاد للنزهة. أما أن يحضر إلى مبنى المحافظة فى باب الخلق ومعه هذه الدراجة فذلك أمر خطير قد يؤدي إلى فصله من الوظيفة.

وأخيرًا اشترت الهانم دراجة لابنها أحمد أفندى وبشرط ألا يركبها عندما يذهب إلى عمله فى محافظة القاهرة بباب الخلق.

ماركو العجلاتى

حدثت حادثة مثيرة فى الشارع ساعة الظهيرة. فقد شوهد أحد شبان الحى المعروفين وكان من الرياضيين وهو ينزل الدراجات التى كان يعلقها ماركو فى خطافات من الحديد على باب الدكان ويقذف الواحدة بعد الأخرى إلى داخل الدكان ثم يحمل ماركو نفسه. ويدفعه إلى الداخل ثم يغلق الباب من الخارج ويحكم إغلاقه عن طريق الترباس، وبعد ذلك يذهب إلى بيته القريب ثم يعود ومعه قفل كبير يضعه فى الترباس ويمضى إلى حال سبيله.

وظل الناس ينظرون إلى ما يحدث فى دهشة ولا يبدون اعتراضا حتى (ينّى) صاحب الحانة المواجهة لدكان ماركو خرج من حانته ووقف على الرصيف وهو يراقب الأحداث ولكنه لا يتكلم برغم أنه كان كثير الثرثرة وإبداء الآراء حول ما يشاهده فى الشارع.

لقد حبس ماركو ودراجاته داخل دكان مظلم وأغلق عليه الباب بقفل كبير.

كانت هذه الحادثة مثل أفلام السينما، وعندما بدأ ماركو يدق الباب من الداخل ويصرخ ويستغيث بدأ أهل الشارع يفيقون من المفاجأة ويتوجهون إلى الدكان، وكان منهم من يطلب من ماركو الصبر على البلاء

وانتظار الفرج حتى يفتح الباب، وكان منهم من يظهر التشفى من ماركو الذى افترى على الأولاد الذين يستأجرون منه الدراجات ويضربهم بلا رحمة حتى بعث الله إليه من لا يرحمه، ولكنهم جميعا اتفقوا على محاولة إنقاذه.

كان ماركو العجلاتى إيطاليا يتمتع بالحماية فى ظل نظام الامتيازات الأجنبية الذى أباح للأجانب فى مصر حقوقا غريبة وعجيبة، فلا يستطيع البوليس سؤالهم عما اقترفوه إلا فى حضور قناصل دولهم أو فى حضور من ينوبون عنهم، فكان الرعاع من هؤلاء الأجانب يقومون بأعمال شائنة ويستبيحون لأنفسهم معاملة أبناء الشعب المصرى كما يشاءون على هواهم بغير خجل أو حياء.

وفى ذلك اليوم استأجر صبى من أبناء إحدى العائلات الكبيرة فى الحى دراجة من ماركو لمدة ساعة بقرش واحد وتأخر الصبى فى إعادة الدراجة إلى ماركو كعادة الصبيان الذين لا يقدرون الزمن، فلما عاد إليه الصبى ليعيد إليه الدراجة انهال عليه ضربا، وكان ابن عمه الشاب مارًا فى الشارع بطريق المصادفة فلما رأى الصبى يبكى سأل ماركو عن السبب الذى دعاه إلى ضربه فأجاب عليه فى وقاحة وهدده بأنه سيضربه هو الآخر ولن تنقذه الحكومة من يده لأنها لا تستطيع ذلك.

كان هذا الشاب طالبًا فى الجامعة الأمريكية وكان رياضيا كما ذكرت لك ومن المعجبين بأنفسهم فلما سمع من ماركو هذا الكلام أخذته الحمية وحبس ماركو ودراجاته داخل الدكان وأغلق عليه الباب بعد أن أوسعه ضربا وصفعًا ولكما، وكان أصحاب الدكاكين مشغولين فى أعمالهم فلم يعرفوا أصل الحكاية التى كانت تتكرر كل يوم، ولكنهم لم يستطيعوا

معارضة الشاب الذى حبس ماركو بعد ضربه خوفا من عائلته التى كانت صاحبة نفوذ فى الحى، ولكنى ينّى صاحب الحانة أرسل ابنته الحسناء ماريكا إلى أم ماركو لتخبرها بما حدث، فجاءت من بيتها ووقفت على باب الدكان لتسمع صراخ ولدها ثم أصبح الشارع فى هرج ومرج بسبب ماركو السجين.

ماذا يفعلون؟

قال ينّى لأم ماركو:

- اذهبى إلى القنصل الإيطالى حتى يحضر بنفسه ويخرج ماركو من الدكان فقالت له:

- أين أجد الآن القنصل؟ وكيف أحضره هنا ليخرج ماركو من الدكان؟ وإذا حضر فلابد أن يحضر ومعه البوليس.

وقال واحد من الرعاع:

- اكسروا القفل أو اكسروا باب الدكان ليخرج ماركو من سجنه.

فقال له الحاج فرحات القهوجى:

- إذا كنت تستطيع كسر باب الدكان فافعل يا شاطر وإذا جاء الحاج الكبير الذى ضرب ماركو حفيده بسبب بسكليتة فقل له إنك أنت الذى كسرت الباب.

ولم يلبث هذا الشخص أن توارى بين الناس وهرب وتأزم الموقف وأصبح صراخ ماركو يفتت الأكباد، ثم خفت صوت صراخه، وكلت يداه من دق الباب حتى أصبحت دقاته واهنة خرساء، فقال الحاج فرحات لأم ماركو:

– اذهبى إلى بيت الحاج الكبير وكلمى الستات حتى يحضر ابنهم ليفتح باب الدكان.

وكان المؤذن فى الجامع قد أذن لصلاة العصر وصلاة المغرب واقتربت صلاة العشاء لأن المغرب غريبة كما يقول أهل القاهرة.

وذهبت أم ماركو إلى بيت الحاج الكبير، وعادت ومعها الشاب الذى فتح باب الدكان فخرج ماركو يلهث ويقول إنه لن يضرب الأولاد أبدًا.

كانت الدراجات فى تلك الأيام جديدة فى مصر وكانت تغرى كثيرين وخاصة الصبيان وكان الذى يمتلك دراجة يعتقد أنه امتلك شيئا عظيما، وأذكر أننى عندما حصلت على الشهادة الابتدائية وأراد والدى أن يقدم لى هدية ساعة ذهبية قلت له إننى أريد دراجة أى بسكليتة لها فانوس ودينامو يضىء الفانوس وجرس ونفير فامتلكت دراجة ماركة فيلبس بهذه المواصفات وكان ثمنها أقل من الساعة الذهبية بالطبع ولكنى لم أكن أفكر فى الثمن ولكننى كنت أريد الدراجة التى كان جرسها حين يحدث رنينه ينبئ عن قدومى لزيارة أقاربى فى الحى.

وكان أشهر صاحب دراجة فى حيّنا هو (على أفندى كنكة) الذى كان يعطى دروسا خصوصية للتلاميذ الفاشلين الذين لم ينجحوا أبدا، وكان على أفندى هذا يحمل الشهادة الابتدائية ولم يجد وظيفة فاشتغل مدرسا خصوصيا وكان يرتدى الجلباب والجاكتة ويضع على رأسه طربوشا ويضع فى مقدمة دراجته عصا من الخيزران يستخدمها فى التدريس ليظهر قدرته حين يضرب بها الأولاد فلا هو يعلّم ولا هم يتعلمون.

وقد شاهدت فى سنّى الباكرة عجائب التعليم فكان الأب وابنه تلميذين فى فصل واحد فى مدرسة عابدين الابتدائية وقد نجح الابن

ورسب الوالد فى امتحانات النقل من سنة دراسية إلى سنة أخرى، ولم يحصل الوالد على الشهادة الابتدائية وفصل من المدرسة.

أما على أفندى كنكة فقد كنت أشاهده راكبًا دراجته ومعه خيزرانته وكنت قد أصبحت طالبا فى المدرسة الإبراهيمية الثانوية، وارتديت البنطلون الطويل وكان هذا من مظاهر الدخول فى طور الرجولة فى أيامنا لأن البنطلون القصير لا يلبسه إلا العيال أى الصبيان الصغار وكنت قد أهملت الدراجة واعتقدت أنها لعبة من لعب الصبيان لم أعد أركبها.

وكان لقب (كنكة) الذى أضيف إلى إسم على أفندى يستوقفنى وأردت معرفة سرّه، ومازلت أسأل وأتقصى حتى عرفت أنه من طبائعه أن تقدم له كنكة قهوة كلما ذهب إلى بيت ليدرس لأحد صبيانه المساكين درسا خصوصيا بلا جدوى؛ ولذلك أطلقوا عليه اسم على أفندى كنكة صاحب أشهر دراجة فى حينّا.

الخواجة ينّى والحسناء ماريكا

فى ليلة من ليالى الشتاء جذب أمين المالطى فتوة عابدين الخواجة ينّى من داخل حانته وألقاه على الرصيف فانكسرت ساقه وحملوه إلى القصر العينى، ثم مضى أمين إلى رصيفه المعهود وفرش حصيرته وتغطى بلحافه كالعادة، لأنه لم يكن له بيت ولا مسكن، وكان معروفا بالنوم على الرصيف فى الصيف والشتاء فإذا أمطرت عليه السماء حمل حصيرته ولحافه ودخل فى أقرب بيت ونام تحت السلم.

وقد رويت عنه حوادث هائلة مخيفة وعندما استبدل بنظام خفراء الليل بالعساكر، مر به عسكرى الدورية ذات ليلة وهو نائم على رصيفه فركله بقدمه ليوقظه ويقتاده إلى قسم بوليس عابدين فهبّ من نومه وجذب العسكرى وكسر رقبته على الرصيف ثم حمل حصيرته ولحافه وذهب لينام على رصيف آخر وقيل إنهم وجدوا العسكرى القتيل بعد الفجر وحرروا المحضر وكتبوا فيه أن الفاعل مجهول.

أما قصته مع الخواجة ينّى الذى كسر ساقه ووضعت فى الجبس فقد روى الرواة عنها أقوالا كثيرة برغم أن ينّى نفسه التزم الصمت ولم يتهم أحدا بكسر ساقه وزعم أنه تزحلق على الرصيف مع أن الحاج عبد اللطيف وهو من رواد الحانة كل ليلة قال للناس إنه أغلق دكانه فى

الساعة الحادية عشرة وذهب إلى الخواجة ينى ووقف كعادته إلى جانب البرميل الكبير الذى وضع فوقه طبق الجبنة الرومى والزيتون وكانت معه سميطة اشتراها من الفرن الأفرنجى بقرش تعريفه ثم شغله الشراب والطعام وكان ضوء المصباح البترولى داخل الحانة خافتا ويتراقص مع الهواء الكثير الذى يدخل من الباب.. ثم شاهد أمين فى وسط الدكان وهو يقذف الخواجة إلى الخارج بقوة. وسمع طرقعة شىء ينكسر ولم يلبث أن سمع صراخ ينّى واستغاثته فترك كل شىء على البرميل وأسرع إليه وكان معه محمود الجزمجى والواد عبداللطيف المزين وسيد القهوجى صبى المعلم فرحات وأشخاص آخرون لم يتبينهم فى الشارع لأنه اهتم بحمل الخواجة إلى الداخل وإجلاسه على الكرسى الوحيد فى الحانة.

كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة أى منتصف الليل فطلب من محمود الجزمجى أن يقرب مصباح البترول من الكرسى الذى أجلس عليه ينّى ليرى ماذا حدث له فرأى الدم قد أغرق رجل البنطلون اليمنى وسمع ينى يقول:

– رجلى كاسوره.

أى أن رجله قد كسرت فطلب من سيد القهوجى الإسراع بإحضار عربة حنطور من أمام محطة باب اللوق، فجرى سيد فى الشارع وعاد بعد دقائق راكبًا العربة التى أحدثت دويًا عند قدومها فى هدوء الليل ففتحت (سولا) زوجة ينّى باب البلكونة وخرجت إليها ومعها ابنتها (ماريكا) تستطلع الأمر، فقال لها الحاج عبداللطيف إن ينّى قد كسرت ساقه. فأسرعت المرأة ومعها ابنتها فى ارتداء ثيابها وهبطا إلى الشارع عندما كان الحاج يضع ينّى داخل العربة ثم يركب إلى جانبه ومعهما فى المقعد الأمامى

محمود الجزمجى وسيد القهوجى.

وعندما تأهبت العربة للمسير صاح الحاج عبد اللطيف قائلا - يا سولا... اطردى الزبائن واقفلى الدكان.

وحاولت المرأة وابنتها أن توقفا العربة لتركبا مع ينى ولكن الحاج عبداللطيف صاح مرة أخرى.

- اطلع يا أسطى على القصر العينى.

فتحركت العربة، وفى تلك الليلة وضع الأطباء ساق الخواجة ينّى فى الجبس وربطوها إلى أعلى السرير، وعاد الفرسان الثلاثة إلى الشارع عند مطلع الفجر وكانت سولا وابنتها ماريكا فى البلكونة تنتظران قدومهم، فصاح الحاج عبد اللطيف بأن كل شىء على ما يرام وأن ينّى قد وضعت ساقه فى الجبس وسيبقى أسبوعين فى القصر العينى.

ثم علا صوت المؤذن بأذان الفجر، فاتجه الحاج عبد اللطيف نحو الجامع وتوضأ واستعد للصلاة بعد أن استغفر الله من المعاصى التى يرتكبها.

وكان الخواجة ينّى قد سكن هذا البيت الحديث فاستأجر دكانة جعلها حانة ومحلا لبيع الجبن الرومى الفاخر والزيتون والمخلّلات والخل، وقد سكن فى شقة من هذا البيت فى أعلى الدكان.

وقد بنى الحاج الكبير هذا البيت على الطراز الإيطالى وكانت فيه ستة دكاكين وست شقق، فى كل طابق من الطوابق الثلاثة شقتان، وكانت له بلكونات لها أسوار حديدية جميلة وغرفة ذات نوافذ تفتح وتغلق وفيها شيش وزجاج.

كان بيتًا حديثًا يتفرج عليه الناس، وقد أهداه الحاج الكبير إلى شقيقته حتى يطمئن عليها فلا يستذلّها زوجها بسبب المال برغم غناه وسعة أرزاقه وقد كان معظم سكان هذا البيت فى ذلك العصر من الأوربيين فكان الخواجة ينّى يسكن فى الشقة التى فوق دكانه أو حانته، وفى الشقة المجاورة كان يسكن (ادمندو) الخياط الإيطالى الذى قدم من روما ليصنع ملابس السلطان حسين كامل سلطان مصر ولكن سرعان ما مات السلطان فأصبح هذا الإيطالى يصنع البدل والمعاطف لأبناء الشعب والأفندية وقد يصنع معطفا لأحد الأسطوات. وكان من سكان هذا البيت رجل فرنسى مجهول الهوية اشتهر بأنه لا يدفع أجرة مسكنه وقد تحايلوا على إخراجه من الشقة بطرق شيطانية حتى لا يلجأ إلى المحكمة المختلطة التى كانت مختصة بنظر قضايا الأجانب، وكان المصريون يخافون اللجوء إليها لأنها لم تكن تحكم فى صالحهم، وإذا صدر حكم فأنه لا ينفذ إلا عن طريق قنصل الدولة الأجنبية لأن السلطات المصرية كانت لا تملك سلطة التنفيذ، ولذلك كان المصريون يستخدمون طرقا أخرى فى إخراج مثل هذا الرجل من شقته ولو تنازلوا له عن أجر سنة أو أكثر، وقد تعهد شاب كلوباتى بمضايقة هذا الفرنسى حتى ألجأه إلى مغادرة الشقة، وكان هؤلاء الكلوباتية يؤجرون الكلوبّات وهى المصابيح البترولية ذات النور الساطع لأصحاب الدكاكين وأصحاب عربات الفاكهة التى تسهر فى الليل لبيع المشمش أو البرتقال أو البطيخ والعنب وغيرها من الفاكهة، وكان كلوب الدكان يعلق فى خطاف حديدى مثبت فى السقف، أما كلوب العربة فكانت له قاعدة ثابتة فوق العربة.

وكان من عادة الكلوبّاتية أن يمروا على زبائنهم طول الليل ومعهم وابور جاز خاص له لسان من اللهب كان صبىّ الكوبّاتى يحمله معه

مشتعلا وهو راكب دراجته ليشعل الكلوب الذى انطفأ فى دكان أو فوق عربة أو يصلح هذا الكلوب إذا حدث فيه خلل.

وقد تعهد صبى الكلوبّاتى بمضايقة هذا الرجل الفرنسى فكان ينتظره كل مساء حين يراه قادما ويصعد معه على سلم البيت ومعه الوابور ذو اللهب فيقربه منه ويبعده عنه حتى يدخل شقته خائفًا مذعورًا.. ولما استمر هذا العمل أسبوعا اضطر الرجل إلى تسليم مفتاح الشقة لأصحابها وغادر المكان إلى غير رجعة.

أما الخواجة ينى فقد كان رجلا طيب العشرة دمث الأخلاق محبًّا للناس وكانت ابنته (ماريكا) باهرة الجمال حتى خطفت أبصار الشباب فى الحى ولكن كيف الوصول إليها..!! إنها لا تسير إلاّ ومعها أمها التى كانت حارسة دائمة لها، وكانتا فى بعض ساعات الصباح تقومان بتنظيف الحانة وتنظيمها فكان بعض الشباب أوالصبية المراهقين يدخلون إليهما لشراء قطعة جبن أوبعض حبات الزيتون أوالمخللات وهم فى غير حاجة إليها للحديث معها أوالاقتراب منها لمشاهدتها وتأمل جمالها.

وكان الخواجة ينى يعرف ذلك فيسرع فى تلبية طلبات هؤلاء الشبان ليصرفهم عن الدكان.

كانت ماريكا ناصعة الوجه حلوة التقاطيع ذهبية الشعر وكان شعرها طويلا خلف ظهرها مثل ذيل الحصان وكانت عيناها فى زرقة البحر، وكان صوتها رقيقا ناعما ممتعًا وهى تتحدث بالعربية فى لكنتها اليونانية، ولم تكن تمكث فى الحانة طويلا، بل كانت بعد مشاركة أمها فى أعمال النظافة والترتيب تصعد إلى شقتها بينما تبقى سولا مع زوجها ينى، وقد يذهب لقضاء بعض أعماله فتبقى وحدها.

وكان للخواجة ينِّى زبون دائم يأتى إليه كل يوم ساعة الظهر ولا يحضر فى أيام الجمعة وكان هذا الزبون طبيبا فى وزارة الصحة وقد تعلم فى إنجلترا، ولم يكن يرتاد هذه الحانة فى ساعات الظهيرة غير هذا الطبيب الذى كان ينّى شديد الاحتفال به، وكان يعدّ له بعض الأطعمة الخفيفة التى يحبها فيجلس على الكرسى الوحيد داخل الحانة أو على الرصيف أمام الباب أحيانا ثم يقوم حينا بعد حين ليأكل لقمة مما أعدّه له ينّى ويشرب كأسه وينصرف فى هدوء ووقار واحترام. وقد لفت هذا الرجل نظرى وكنت أشاركه كثيرا فى جلسة الرصيف ورغم تفاوت السن بينى وبينه فقد توطدت بيننا صداقة وعرفت أنه طبيب فى وزارة الصحة وأنه تعلم فى إنجلترا ومن طول عشرتى معه عرفت أنه مصاب بصدمة عاطفية عنيفة جعلت منه موظفا لا يمارس المهنة التى ضيّع من أجلها أجمل سنوات حياته لأن امرأة سلبت منه قيمة هذه الحياة.

قال لى الدكتور إبراهيم إنه عندما كان يدرس الطب فى الجامعة البريطانية عرف زميلته مرجريت وتشابكت خيوط حياتهما وأحبها حبا جنونيا مثل حب قيس وليلى وتخرجا سويا فى عام واحد.

كانت تشبه (ماريكا) ابنة ينِّى مع فارق السن بالطبع فإن مرجريت فى سن أمها.

وعندما عرض عليها الدكتور إبراهيم الزواج قالت له الحب شىء والزواج شىء آخر أنا أحبك ولكننى لا أقبل ولا تقبل أسرتى أن أتزوجك.

كان الدكتور يعدّ عدّته للعودة إلى مصر بعد انتهاء البعثة وقد دارت به الأرض بعد كلمات مرجريت وأحس أنه طعن فى قلبه طعنة لا شفاء منها.

وذات يوم كان الدكتور إبراهيم يمشى فى شارعنا وشاهد الصبية الصغيرة (ماريكا) شبيهة حبيبته مرجريت ومنذ ذلك اليوم أصبح زبونا فى حانة ينّى ولكنه يحضر فى ساعة الظهيرة حيث لا زبائن ولكنه لا يستطيع الحضور فى المساء.

لم يكن ينّى يعرف شيئا عن هذه الأحاديث التى أرويها لك.. ولكنه كان يفتخر بأن أمثال الدكتور إبراهيم يحضرون إلى حانته، وكان يقوم بخدمته فى إخلاص شديد ويلبى كل طلباته حتى يرضيه، وكان بعض الفضوليين من أهل حيّنا يعجبون من أمر هذا الرجل الذى تبدو عليه آثار النعمة ثم يجلس على كرسى على الرصيف أمام حانة ينّى ويأكل أحيانا بعض أقراص الطعمية أو يحضر له ينّى السمك من دكان حامد السماك أو الكباب والكفتة من دكان جودة الكبابجى ويضع طعامه على برميل داخل الحانة.

ودفعنى نزق الصبا ذات يوم إلى سؤال الدكتور إبراهيم عن الأسباب التى جعلت مرجريت لا تقبل الزواج منه برغم الحب المتبادل بينهما فاستدعى الخواجه ينّى وأعطاه كأسه الفارغة فعاد بها ينّى وهى ملآنة وكان الدكتور إبراهيم قد أطرق وسكت وبدت على وجهه آثار مشاعر متناقضة من الغضب والندم والحسرة والهوى الجامح واغرورقت عيناه بالدموع وقال لى:

– ألا تعلم أن جدى هو أحمد عرابى باشا؟

فى هذه اللحظة نظرت إلى الشارع الذى يموج بالحركة فانطفأت فى خيالى كل صور الناس وجلبتهم حتى نداءات الباعة لم أعد أسمعها وخيل

إلى أنني انتقلت مع الدكتور إبراهيم بكرسينا إلى ميدان عابدين وهو فى آخر الشارع وأننا نشاهد أحمد عرابى على صهوة جواده ومعه جنوده فى الميدان.

ولكن الخواجة ينى حضر فى هذه اللحظة ليدعو الدكتور إبراهيم إلى الطعام فقد أحضر له سمكا من دكان حامد السماك وخبزا من عند عم سيد العياش.

كان الخواجة ينّى رجلا خدوما كما يقول أولاد البلد وكان محبوبا وعندما عاد إلى حانته بعد كسر ساقه اجتمعوا حوله يهنئونه بسلامة العودة وأحضر الحاج عبد اللطيف زجاجات الشربات على حسابه واشترى ثلجا وأحضر طستا نحاسيا من بيته ليبل الشربات بيده أى يذيب عصير الورد فى الماء المثلج ثم سقى الناس فى أكواب من حانة ينّى وظل يروح ويجىء بقامته القصيرة وجسمه الملىء وفى يده منشّة من الخوص وكأنه فى فرح من أفراح أولاد البلد.

وكان من عادة الخواجة ينّى أن يقيم فى شقته احتفالا فى عيد رأس السنة الميلادية فكان يشترى خروفا صغيرا يذبحه ويضعه فى صاج كبير مما يضعون فيه الكحك فى عيد الفطر ويملأ الصاج حول الخروف بإضافة الخضراوات والبصل أوغير ذلك ويعدّه إعدادًا بديعًا ثم يرسله إلى الفرن الأفرنجي وكان صاحبه يونانيا مثله يضعه فى مكان فى الفرن له نار هادئة ويظل يسويه من الظهر حتى المساء حتى يصبح لونه فى لون الذهب وتصبح الخضراوات من حوله مثل حديقة جميلة متعددة الألوان، وكان

يدعو بعض أبناء وبنات الحى الذين فى مثل سن ابنته ماريكا فكنا نذهب إلى حفلته بعد الإذن من عائلتنا ونشارك فى هذا الاحتفال الجميل.

وكان الخواجة ينّى يصبّ زجاجة صغيرة على الخروف ويشعل عود ثقاب فتشتعل فيه نار زرقاء تعيد إليه سخونته ثم تفرق علينا زوجته (سولا) وابنته (ماريكا) الطعام وعند منتصف الليل يطفئون الأنوار والشموع ويقبل كل واحد صاحبته.

صانع المراكيب

كان بائع البلغ يمرّ فى الشارع على دكاكين المعلمين وقد حمل خرجه على كتفه وفى يده زوج من هذه النعال يصفق بهما وهو سائر فى الطريق، فيضرب النعل بالنعل ويصيح قائلا.

– بُلغ.... بُلغ.

والبُلغة نعل مغربى كما قلت لك من قبل وقد انتشرت فى مصر من قديم الزمان ولعلها جاءت مع المعز لدين الله الفاطمى عندما أقام دولته وأنشأ مدينة القاهرة.

وفى العصر الحديث استوطن المغاربة حارة الفحامين فى الغورية وأصبحت صناعة البلغ وتجارتها تتركز فى هذه الحارة وأحب أبناء البلد من الأسطوات والمعلمين والتجار لبس البلغ، وكانت تصنع من الجلد الأبيض والأسود والأصفر. وكانت النساء من الأرياف يلبسن البلغ السوداء عادة. وكان الرجال يلبسون البلغ الصفراء أما البلغ البيضاء فقد كان يلبسها العياق من أهل القاهرة وظهرت فى بعض الأحيان بلغ رمادية اللون.

ولكن الذى لفت نظرى أن بائع البلغ كان يستبدل بالبلغة القديمة واحدة جديدة ويأخذ فرق الثمن من الزبون، ولا أدرى حتى الآن ماذا كان يصنع بالبلغة القديمة.

هناك أشياء محيرة فى حياة المجتمع المصرى.

ولعل هذه البلغ القديمة كان لها زبائن أيضا يقبلون على شرائها فالمثل العامى يقول: (كل فولة لها كيّال) أى أن كل سلعة لها من يشتريها وقد شاهدت فى سوق الكانتو فى العتبة الخضراء أحذية قديمة وملابس قديمة للرجال والنساء ولها زبائن، ولكن البلغة القديمة شىء آخر لا يستحق إلا إلقاءه فى صناديق القمامة ولعل باعة البلغ كانوا يخدعون زبائنهم بهذه الطريقة ليبيعوا لهم بلغا جديدة.

وأنا لم أشاهد فى حياتى صناع البلغ وكيف يصنعونها وقد شاهدت صناع الأحذية وهم يصنعونها ولكن الذى أثارنى ولفت نظرى هو صناعة المراكيب الحمراء التى كان يلبسها أهل النوبة والسودان وكنت شديد الإعجاب بشكلها الذى يشبه القارب الجميل فهى مدببة مرفوعة من الأمام، كما أنها مثلثة فى ارتفاعها بعد الاستدارة من الخلف.. ولونها الأحمر المتميز بالغ الروعة.

إن اللون الأحمر فى ذاته مثير ويستخدم مصارعو الثيران ملاءات حمراء فى المصارعة لأن اللون الأحمر يثير الثيران، كما أن اللون الأحمر ينذر بالخطر فى إشارات المرور ويغلق الأبواب على الرؤساء الذين يضعون على أبوابهم مصابيح حمراء.

ويلهب المشاعر فى المخادع وتوصف ليالى الهوى الجامح بأنها من الليالى الحمراء.

وأهل الصين يستخدمون اللون الأحمر فى صنع التحف الثمينة كما يستخدم الأوربيون اللون الأحمر فى صنع الأثاث من الطرز الغالية

أوآنية البورسلين الفاخرة ولكنهم هم والصينيون يزينون هذا اللون بالذهب.

وإذا كان اللون الأخضر مريحا فإن اللون الأحمر مثير على كل حال، ويبدو أن الإنسان فى حاجة إلى الراحة وإلى الإثارة أيضا حتى يصبح قادرا على الحياة.

ولذلك كان صانع المراكيب السودانية وهو سودانى أيضا يلفت نظرى وأنا جالس أمامه على الرصيف المقابل لرصيفه.

كان يجلس على كرسى منخفض وأمامه قرمة كبيرة مثل قرمة الجزار وهى منخفضة أيضا، وكان يدق نعل المركوب على هذه القرمة بشاكوش حديدى ناعم على رأس شبه مستديرة ثم يقوم بخياطة الجزء الجلدى الأحمر فى النعل بخيط قوى متين ويضغط على النعل بشاكوش آخر يسخنه فى النار.

والمركوب صلب البنية جلدًا ونعلا، وكان هذا الرجل هو الوحيد الذى يقوم بهذه الصناعة فى حيّنا ولكننى لم أر أحدًا من زبائنه يماكسه أو يحدثه عن السعر بل كانوا جميعا يشترون منه ويدفعون الثمن بلا مناقشة. وقد كان أهل السودان وأهل النوبة يحملون هذه الخصائص التى تدل على الأمانة التى اشتهروا بها.

ومنذ سنوات حاولت الحصول على مركوب من هذه المراكيب الحمراء فلم أجده فى مصر أو فى السودان أو بلاد النوبة. فقد اندثرت هذه الصناعة.

ترزى السلطان

كانت تولية السلطان حسين كامل على عرش مصر بعد عزل الخديوى عباس حلمى الثانى بمعرفة الإنجليز أمرا قابلته الطوائف الشعبية بالنفور والاستهجان وخاصة بعد أن أعلنت بريطانيا الحماية على مصر.

وكان الناس يعطفون على الخديوى عباس المعزول لا حبًّا فى عباس ولكن كرها فى حسين كامل، وكان الأطفال ينشدون فى الشوارع والحارات نشيدا تقول كلماته:

الله حى عباس جاى
يضرب بمبه فى رأس العمده
وهو جاى

والعمدة هو المعتمد البريطانى.

ويذكرنا هذا بنشيد آخر كان يردده أطفال القاهرة قبل تولية محمد على حكم مصر وكان الباشا التركى الذى يوليه سلطان آل عثمان يحكم البلاد من القلعة مقر الحكم فى القاهرة، وهذا النشيد كانت كلماته:

باشا يا باشا ياوش النمله
مين قال لك تعمل دى العمله

وقد رويت عن السلطان حسين كامل روايات كثيرة وقيل إنه كان يضرب بالكرباج وكان عصبى المزاج شديد الغضب.

وقد سمعت من كبار السن فى حينا أحاديث شتى عن هذا السلطان الذى حاول استرضاء الناس عند توليته العرش فى أخطر فترة من فترات تاريخ مصر الحديث.

وقيل إنه ذهب لصلاة الجمعة فى جامع السيدة زينب فهاجمه خطيب المسجد هجوما عنيفا فى حضرته وقال إنه لا طاعة له لأن الذى ولّاه هم أعداء البلاد، أى الإنجليز.

وقيل إن رجله «جُزِعت» فاستدعوا له برسوم المجبر وكان مشهورا فى القاهرة بعلاج الكسور وغيرها من العظام التى تلوى أو تُجزّع مما كان يسمى فى ذلك العصر بعمل (المجبراتى) أى الذى يجبر العظام، فلما دخل المعلم برسوم على السلطان أراد إثارته حتى يجرى الدم فى عروقه فوجّه إليه ألفاظًا مثيرة مما جعل السلطان حسين يهبّ من فراشه ليضرب برسوم الذى جرى منه فظل يلاحقه فى ردهات قصر عابدين. وكانت هذه هى الطريقة التى استخدمها المجبراتى لعلاج رجل السلطان المجزوعة.

وكان للسلطان حسين أخ شقيق هو الأمير حسن وهما أبناء الخديوى إسماعيل وكان الأمير حسن والأمير حسين متلازمين أثناء حياة والدهما وهما اللذان اشتركا فى إغراق إسماعيل باشا المفتش وزير المالية عند كوبرى قصر النيل عندما غضب عليه الخديوى إسماعيل، وقد مات

الأمير حسن وبقى الأمير حسين حتى تولى عرش مصر بعد أن منحته بريطانيا العظمى لقب سلطان وألغت لقب خديوى، وقد تولى من بعده أخوه غير الشقيق (أحمد فؤاد) بلقب سلطان أيضا ثم أصبح يلقب نفسه بلقب الملك أحمد فؤاد بعد إعلان استقلال مصر.

وفى أوائل حكم السلطان حسين جاء إلى حىّ عابدين رجل إيطالى وسكن فى شقة فى البيت الذى كان قد بناه الحاج الكبير على الطراز الإيطالى وقد حدثتك عن ذلك فيما سبق من كلام

وانتشر وذاع أن هذا الإيطالى (ادمندو) هو الترزى الخاص للسلطان وكان يذهب كل يوم إلى قصر عابدين، وقد أعدّت له غرفة خاصة هناك وأصبح هو المسئول عن ملابس السلطان، وسرعان ما نطق باللغة العربية شأنه فى ذلك شأن الأجانب الذين كانوا يعيشون فى الحى.

ولكن سرعان ما توفى السلطان حسين كامل وتولى الملك السلطان أحمد فؤاد فلم يعد للإيطالى ادمندو مكان فى القصر فأخرجوه من غرفته لأن السلطان الجديد لا يريد منه أن يصنع له ثيابه، وأصبح ادمندو فى أزمة شديدة لأن صناعته لا تلقى رواجا عند أهل الحى الذين كانوا يرتدون الملابس البلدية فى الغالب وليس بينهم ممن يرتدى الملابس الإفرنجية إلا العدد القليل من الأفندية ومعظمهم من صغار الموظفين أو طلبة المدارس.

أما طبقة الباشوات أصحاب القصور فقد كان لهم خياطون من المشاهير المعروفين أصحاب المحلات الكبيرة، كما كان يمارس هذه المهنة

بعض المصريين القلائل ولهم محلات كبيرة فى الشوارع الجديدة التى اختطها الخديوى إسماعيل مثل شارع عابدين (الجمهورية الآن) وشارع الساحة (رشدى الآن) كما كانت هناك طبقة الترزية من الطليان أصحاب الشهرة، وكان فيهم أيضا بعض الأرمن. ولذلك كان من الصعب أن يمارس (ادمندو) عمله ولم يكن فى استطاعته أن يفتح محلا له مواصفات خاصة ويتكلف مصاريف باهظة لأن طوائف الترزية فى تلك الأيام سواء من الأجانب أو المصريين كانوا يتخذون لأنفسهم صفة ملازمة وكان الواحد منهم يقوم بعمل التاجر والترزى فى آن واحد، ويكتبون على لافتتات محلاتهم (فلان...... تاجر وترزى) وكانت عندهم جميع الأقمشة والألوان والأصناف الخاصة بالصيف والشتاء وكان بعضهم يرفض تفصيل البدل إذا اشترى الزبون قماشه بنفسه من محلات الأقمشة لأن هؤلاء الترزية كانوا يعرضون على زبائنهم جميع أصناف الأقمشة. بل كانوا يختارون حسب أذواقهم ما يصلح للزبون.

وذات يوم أراد محمود فهمى النقراشى باشا رئيس وزراء مصر أن يختار لنفسه أقمشة بدلة ويشتريها من أى مكان فرفض الترزى الإيطالى الذى كان يتعامل معه منذ قديم الزمان رغبة الباشا وقال إنه هو الذى يلبسه على ذوقه.

وكان هناك ترزية متخصصون فى صنع الملابس الرسمية التى كان يرتديها كبار القوم فى حفلات التشريفات الملكية. كما كان هناك ترزية

متخصصون فى صنع بدلات الفراك والبونجور والردنجوت وهى بدلات المناسبات.

وقد ظهرت الملابس الرسمية منذ أيام عباس باشا الأول فكان لايسمح لأحد بمقابلته فى الحفلات الرسمية إلا إذا كان مرتديا بدلة التشريفة. ثم أصبحت لهذه الملابس مراسم وتقاليد فى أيام الخديوى إسماعيل وازدادت وضوحا فى عهد الملك فؤاد حتى أنه اخترعت ملابس التشريفة لشيخ الجامع الأزهر والمشايخ من هيئة كبار العلماء.

ولو أننا درسنا كل تفصيلات هذا الموضوع لاستطعنا إنشاء متحف لتصوير ملابس التشريفات فى مصر. فى العصر الحديث ابتداء من عهد عباس الأول حتى عهد الملك فؤاد فقد كان.. عباس الأول هو أول من ارتدى الثياب المقصبة المذهبة.. ولم يكن محمد على ولا ابنه إبراهيم يرتديان هذه الثياب ولم تظهر فى حفلاتها الرسمية ملابس خاصة بالتشريفات، ولم يهتم الخديوى محمد سعيد باشا بهذا الأمر أيضا ولكن الخديوى إسماعيل كان شديد العناية به مما يظهر فى صوره الرسمية وقد ذكرت لك أنه كان يختار الملابس الرسمية لخادمه الخاص خليل أغا.

وقد شاهدت الملابس الرسمية للملك فاروق تباع فى المزاد فى قصر عابدين فحزنت حزنا شديدا لأنها كان يمكن أن تكون نواة لمتحف ملابس التشريفات والملابس الرسمية الذى حدثتك عن فكرته ويمكن إقامته فى قاعة من قاعات هذا القصر أو غيره من القصور.

إن حديث الملابس الذى جرنا إليه هذا الترزى الإيطالى شرحه يطول.

ومع أن حى الأزهر والحسين وخان الخليلى كانت له شهرة ومازالت فى صنع الملابس البلدية فقد اشتهر أيضا كثيرون من الخياطين العربى فى حى عابدين ومازال بعضهم موجودا حتى الآن.

وكانت للملابس البلدية أصول وقواعد ترتبط بالذوق فى الجيل الماضى ولم تكن تستخدم فيها الآلات بل كان الخياط العربى يؤدى كل عمله بيديه، وإذا تركنا الجلاليب التى تصنع من الصوف أوالكتان أوالأقمشة القطنية جانبا وهى عادة من ملابس العامة فإن ثياب الصفوة من أبناء البلد كانت القفاطين والجبب والعباءات وكان بعضها للشتاء وبعضها الآخر للصيف، وتختار لها الأقمشة المناسبة لهذين الفصلين.

وكانت أقمشة القفاطين من الحرير الطبيعى الذى كانوا يطلقون عليه اسم (الشاهى) ويبدو أنه كان ينسب لشاه العجم، وكان هذا القماش يباع بالميزان لا بالمتر، لأن هذا الحرير تختلف أوزانه وبذلك يتم تحديد سعره بثمن الأوقية فيزيد السعر كلما زاد الوزن، وكانت أحزمة هذه القفاطين تصنع من الحرير الطبيعى أيضا وتباع بالوزن وكانوا يطلقون عليها اسم (سلبند) ويبدو أنها كلمة تركية أو فارسية.

أما قفاطين الصيف فكانت تصنع من قماش حريرى أيضا عرف باسم السكروته.

وكانت الجبب تصنع من الصوف والعباءات تصنع من الجوخ وجبب الصيف كانوا يصنعونها من التيل الأيرلندى أو من قماش صوف خفيف أو من الكتان.

وكانوا يدققون فى انسجام ألوان الطاقم الواحد من هذه الثياب بحيث تتواءم ألوان القفطان والحزام والجبّة والعباءة مع بعضها. وكانت العباءات تصنع عادة من الجوخ الأسود والكحلى والبنى.

ولهذه الثياب البلدية مكوجى خاص يطلقون عليه اسم مكوجى الرجل له مكواة ضخمة من الحديد لها يد طويلة خشبية ويدوس على المكواة برجله فوق منضدة واطئة، وله طرق خاصة فى كىّ هذه الملابس.

وقد وجد هذا الترزى الإيطالى (ادمندو شانتى فانتى) نفسه وسط هذا الحى الذى يموج بالخياطين العربى. ومكوجية الرجل ولكنه لم ييأس وجعل غرفة من شقته ورشة لصنع البدل والمعاطف للراغبين من أهل الحى والأحياء المجاورة.

وانتشرت فى تلك الأيام موضة بين الأسطوات والمعلمين الكبار من أبناء البلد فأحبّوا لبس الجلباب أو القفطان وفوقه المعطف مع وضع الطربوش فوق رءوسهم وكانوا يفصّلون القفاطين والجلاليب عند الخياطين العربى، أما المعاطف فكان (ادمندو) هو الذى يصنعها لهم.

وكان الأسطى محمد شيخ النجارين فى الحى هو الذى ابتكر هذا الزى فلبس القفطان الأبيض الشاهى الثمين بخطوطه السوداء الرفيعة وفوقه

معطف من الصوف الأسود وأمال طربوشه فوق رأسه ثم بدأ أبناء البلد يقلدون هذا الزى، وانتشرت هذه الموضة فى أنحاء القاهرة وأصبح الترزى الإيطالى أشهر صناع معاطف المعلمين والأسطوات وكان منها معاطف شتوية من الصوف ومعاطف صيفية من الحرير أو التيل أو الكتان.

ولكن ادمندو بدأ يفصل البدل لبعض الأفندية فى الحى وكان منهم طالب فى مدرسة الحقوق أصبح هو وبعض زملائه من زبائن ادمندو. ثم تخرج هؤلاء الطلبة وأصبح منهم محامون وقضاة ووزراء فأصبح (الخواجه موندى) وهذا هو اسم التدليل الذى اشتهر به ادمندو الترزى الخاص لبعض رجال القانون الكبار فى مصر.

وانتقل ادمندو من شارعنا إلى شقة جديدة فى شارع آخر جديد به عمارات كبيرة.

وحدد الترزى الإيطالى عدد زبائنه حتى يستطيع تلبية طلباتهم.

وعندما قبل الخواجة موندى تفصيل بدل الأستاذ كريزويل الإنجليزى عالم الآثار الإسلامية الشهير وأستاذ الآثار الإسلامية فى جامعة القاهرة اشترط عليه ألا يتدخل فى عمله.

وقال الأستاذ كريزويل للخواجة موندى:

أنا تركت لندن ومن فيها من خياطين ومن محلات لأفخر الملابس وجئت إليك فى القاهرة.. ماذا تريد منى بعد ذلك؟

وكان كريزويل قد اشترط شرطا واحدا على موندى وهو أن يجعل الجاكته ملتصقة بصدره حتى يحس بها وكأنها تلمس ضلوعه.. وضحك موندى وقال له:

- وكيف تتنفس يامستر كريزويل.؟

زفة المطاهر

كان للأطفال تقاليد وعادات عند أهل القاهرة فى الجيل الماضى وقد اندثرت وضاعت فى الزحام.

ومن هذه التقاليد أن الطفل الذى يبقى على قيد الحياة لأبويه بعد وفاة عدد من الأطفال الذين ولدتهم أمه من قبل، كانت له أهمية خاصة وقد ذكرت باحثة إنجليزية جاءت إلى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أن ٥٠٪ من أطفال المصريين يموتون قبل سن الخامسة لأسباب من أهمها عجز الرعاية الصحية فى ذلك الوقت، واستخدام وسائل غريبة فى محاولة إنقاذهم من الموت حين يصابون بالأمراض الخطيرة مثل استخدام الأحجبة والتمائم، والاعتقاد بالعين الشريرة التى تحسد الطفل فيحتاج إلى البخور وخرق عين الحسود على ورقة بدبوس أو إبرة ثم إحراقها فى المبخرة إلى غير ذلك من الخرافات التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى وقد زال معظمها وانتشرت وسائل العلاج الطبى فى كل مكان حتى فى النجوع والكفور.

ولكن الطفل الذى كان يعيش، أى يبقى على قيد الحياة بعد وفاة إخوة وأخوات له من قبل، كانوا يطلقون عليه اسم الوحدانى أى الواحد الذى عاش وكان عندما يبلغ الخامسة من عمره يقام له احتفال فى الحى

لا يشترك فيه غير الأطفال، وكانوا يضعون على رأس هذا الطفل إكليلا من ريش الوز الأبيض يصنع لهذا الغرض وهو مثل الطاقية، ويلبسونه جلبابا أبيض ثم يركبونه بالمقلوب فوق ظهر حمار أبيض وتبدأ الزفة من عند باب بيت الأسرة فتطوف بالحىّ وقد تمر أمام ضريح من أضرحة أولياء الله وخلفها الأطفال من أقارب الطفل وأبناء الأسر المجاورة وتعود هذه الزفة إلى المكان الذى بدأت منه وقد أمسك رجل بزمام الحمار، بينما ينشد الأطفال فى نغمة واحدة قولهم.

– ياأبو الريش انشالله تعيش.

وقد سميت مستشفى (أبو الريش) للأطفال فى حى المنيرة بالقاهرة بهذا الاسم لهذا السبب.

أما الزفة الكبرى التى كانت تقام فى الحى فهى زفة المطاهر وهى أكثر من زفة واحدة لأن الأطفال الذين كانوا يختنون وتقام لهم الزفة أكثر من طفل.

وكان موسم ختان الأطفال فى كل عام يتم أثناء مولد سيدى حمزة الذى يقع ضريحه فى أول شارع البلاقسة من ناحية شارع قوله، وهناك فى حى عابدين سيدى حمزة آخر فى شارع هدى شعراوى.

وشارع البلاقسة من أقدم شوارع القاهرة وكان موجودا قبل أن يخطط محمد على شوارع القاهرة وقبل أن يبنى الخديوى إسماعيل قصر عابدين وهو يمتد من ميدان عابدين حتى شارع قوله، وبه عدد من الحوارى والأزقة أهمها حارة البلاقسة التى تصل من الشارع حتى شارع قوله فى ميل قليل.

وكان مولد سيدى حمزة يستمر سبعة أيام كل سنة وتقام أثناءه حفلات ختان الأطفال وزفة المطاهر التى تقام فى اليوم الواحد أكثر من مرة حسب الظروف والأحوال.

وفى كل عام كان يأتى إلى حيّنا مزين متخصص فى ختان الأطفال ويطلق على نفسه مزين الإمام الشافعى لأنه كان يأتى من حى الإمام الشافعى، وكان الناس يتبركون بالإمام الشافعى لا بالمزين الذى كان يستأجر دكانا أمام ضريح سيدى حمزة وتخلى له الدكان من ساكنها مدة هذا الأسبوع وكانت هذه الدكان يسكنها أحيانا أحد النجارين، وقد أعدها الرجل السودانى الذى حدثتك عنه لصناعة المراكيب إلى غير ذلك من أصحاب الحرف أو الباعة الذين كانوا يخلون الدكان لمزين الإمام الشافعى، وكان هذا المزين يحضر أدواته ويضعها داخل الدكان ثم يقيم على بابه ستارة كبيرة بيضاء تغطى مساحة الباب كله ويضع فى أعلاها فوق الجدار لافتة كبيرة كتب عليها (مزين الإمام الشافعى) وبعد المولد يعود كل شىء لأصله.

ويبدو أن هذا المزين كان يعرف كل شىء عن أهالى الحى وعائلاتهم الفقراء والأغنياء منهم، فكان لا يتقاضى أجرا من الفقراء ولا يحدد أجرا للأغنياء الذين كانوا يمنحونه أجورا تتناسب مع قيمتهم الاجتماعية وأسماء عائلاتهم. وفى تلك الأيام كان هناك ترابط بين الناس وكانوا يعرفون بعضهم البعض ويتعارفون، وكان الأغنياء منهم يعرفون أن المزين لا يأخذ أجرا من الفقراء فى ختان أطفالهم فكانوا يقومون بالواجب ويعوضونه عن ذلك فى الستر فلا يعلم أحد كم دفع الرجل عن ختان ولده وكانت حكاية «الواجب» «والستر» هذه من أخلاقيات أبناء البلد

الثابتة فى كل المناسبات، ففى الأعياد يرسلون للفقراء الكساء والعيديات فى الستر قياما بالواجب كما يرسلون إليهم الكحك فى عيد الفطر واللحم فى عيد الأضحى أيضا فى الستر.

وكنت أرى الأسطى عرابى الخياط البلدى وقد استدعى إليه قارئا من قراء القرآن الفقراء ليفصل له جبة وقفطانا ويعطيه حزاما للقفطان قبل العيد وكان هذا القارئ الفقير يختار ما يروقه من أقمشة أو ألوان ترضيه وتعجبه وهو لا يعلم من الذى دفع الثمن، ولا يملك الأسطى عرابى أن يخبره عن اسم هذا الرجل وإلّا ضاعت قيمة الثواب الذى أراده فاعل الخير المجهول، ومازالت هذه الأخلاقيات سائدة عند المصريين حتى الآن.

وكان مزين الإمام الشافعى ذكيا حصيفاً فقد وضع لنفسه خطة جميلة هى أن يختن طفلين فى كل مرة واحدا من أبناء الأغنياء وواحدا من أبناء الفقراء حتى يشترك الطفلان فى الزفة.

وكان كثيرون من أبناء الحى يقدمون نذرا فى المولد هو ملابس الختان للأطفال حتى يجدها الفقراء فى دكان المزين ومنها الجلاليب والبشاكير البيضاء وقد يكون منها الأحجبة القصبية التى تكتب عليها آية الكرسى أو مشابك الخرز الملون التى تزين جلباب الطفل المطاهر.

أما زفة المطاهر فقد كانت لها مراسم ثابتة فى تلك الأيام وكانت الزفة تبدأ من دكان المزين حيث يكون أهل الطفل قد أحضروا عربة حنطور تقف عند باب الدكان وكانت أم الطفل تخرج ومعها طفلها ملفوفا فى بشكير أبيض كبير وتحمله بين ذراعيها ثم تركب العربة وتتبعها امرأة أخرى من الفقيرات ومعها طفلها ملفوفا أيضا بالبشكير الأبيض وتركب إلى جانبها، وكانت النساء فى تلك الأيام غير سافرات، وكان الزى لبنات

البلد هو الملاءة السوداء والبرقع والخلاف الوحيد بينهن أن ملاءة النساء صاحبات الثروة وبرقعهن من الحرير الطبيعى الثمين وعروسة البرقع من الذهب الخالص البندقى أى لا يقل عياره عن ٢٤ قيراطا حتى لا يكون صلبا فيؤذى أنوفهن الرقيقة حتى لو كان من عيار ١٨ قيراطا. أما الفقيرات فكان لهن نفس الزى غير أنه مصنوع من القطن وعروسة البرقع من النحاس المذهب.

وعروسة البرقع كانت أسطوانية الشكل حولها دوائر مشرشرة فى دقة حتى تحافظ على ثبات البرقع فوق أرنبة الأنف. وكانت النساء يتفنن فى اختيارها من ناحية دقة الصنع والزخرفة ومن ناحية الحجم أيضا حتى تتناسب مع أنف السيدة.

وكانت النساء البلديات تأنفن من لبس الحبرة واليشمك لأنها من زى التركيات ولو أن بعض النساء المصريات قلدن التركيات فى هذا الزى ثم قلدن النساء الأوربيات أيضا فى أزيائهن بعد ذلك.

أما زفة المطاهر التى كانت تبدأ من دكان مزين الإمام الشافعى، فقد كانت تتحرك فتسير العربة الحنطور فى الشارع ببطء شديد وبداخلها سيدتان وطفلان كما قلت لك، وعندما تبدأ العربة فى التحرك ترتفع أصوات زغاريد النساء من كل النوافذ، وكان يوضع فى العربة أيضا كثير من باقات الورد والأزهار التى كانت تعتبر من نقوط أهل الحى الذين يتبارون فى تقديمها حتى تغطى الكرسى الأمامى للعربة وتصل إلى ركبتى أم المطاهر.

وكان يسير حول العربة بنات صغيرات فى سن العاشرة وما حولها وقد ارتدين ملابس ملونة زاهية وبأيديهن أطباق من البورسلين الأبيض

فيها حلوى (عَلى لوز) وفى كل طبق ملوق[1] طويل، وكانت حلوى (على لوز) تصنع من السكر المعقود وحبات اللوز المقشور بطريقه معينة وخلال مسيرة الزفة كانت البنات يتقدمن بهذه الأطباق إلى المشاهدين على الأرصفة والدكاكين على الجانبين ليقدمن ملوقا من هذه الحلوى إليهم فيتقبلونها فى سرور بالغ، وكان فى يد كل بنت فوطة بيضاء صغيرة مبلولة بالماء لتنظف بها الملوق بعد أن تقدم الحلوى.

وخلال هذه الرحلة القصيرة البطيئة الحركة كانت زغاريد النساء تملأ الجو، وكانت الحلوى تلقى على موكب الزفة من النوافذ، وكان بعض أصحاب القهاوى يقدمون أكواب شربات الورد الأحمر للناس عندما يمر بهم موكب من هذه المواكب إعلانا للفرح لأن شربات الورد كان فى تلك الأيام هو المعبر عن الأفراح فكان تقديمه من التقاليد القاهرية.

وعندما يصل الموكب إلى بيت السيدة أم المطاهر صاحب الزفة، كان لابد لها أن تستضيف صاحبتها أم المطاهر الآخر، فإن كان وقت الغداء لابدّ أن تتغدى معها وإن كان فى وقت آخر قبل الظهر أو ساعة العصر تقدم لها الحلوى والشربات ثم تقدم لها بعض الهدايا حتى لا تعود إلى بيتها ومعها طفلها ويدها خالية، والقاهريون لا يحبون أن تزور أو تزار وبدك خالية بل لابد لك من أن تحمل هدية معك ولو كانت قرطاس فاكهة.

(١) الملوق ينطق بالهمزة «ملوأ» وطرف الملوق لاينتهى بالجزء المقعر المحدّب، وإنما له طرف مبطط صغير.

الفراشون وشخصيات أخرى

كان رجلا ضئيل الجسم سريع الحركة حاضر النكتة قادرًا على صنع ما يريده وما يريده الآخرون منه فى حرفته وهى الفراشة.

وكانت حرفة أصحاب محلات الفراشة هى إقامة سرادقات الأفراح وسرادقات العزاء على السواء. وأظنها ما زالت كذلك ولو أننى لم أشاهد سرادق فرح خلال السنوات الأخيرة.

وكان لهذه الحرفة تقاليد مرعية فى الجيل الماضى وهى فى طريق الاندثار والانتهاء بعد أن أقيمت دور المناسبات فى أحياء القاهرة، وأقيمت أيضا فى المدن والقرى ولم يعد الناس يقيمون أفراحهم فى سرادقات بل يقيمونها فى الأندية والفنادق، ولم يعودوا يتقبلون العزاء أيضا فى السرادقات إلّا حين تدعو الضرورة ولا توجد دار مناسبات عندهم، ومعنى هذا أن هذه الحرفة أصبحت منقرضة مثل حرفة الطرابيشى والجزمجى وغيرهما ممن انتهى دورهم فى حياة المجتمع.

وقد كان الحاج آخر أبناء هذه الطبقة فى هذه الحرفة وكان شديد المحافظة على تقاليدها، فلم يكن من حق أحد من الفراشين ممارسة عمله فى حى فراش آخر ولا يجوز أن ينصب فراش السيدة زينب سرادقا فى عابدين، وإذا اضطرت الظروف أحدهم إلى ذلك فلابد له من الاستعارة

من أدوات زميله وبيان الموقف الذى هو فيه كأن يكون مكلفا بأعمال كثيرة وقد عجز عن تلبية طلبات الزبائن فى هذا اليوم أو غير ذلك من الظروف الطارئة حتى لا يساء فهم الموقف عند أهل الحى.

وفى تلك الأيام كان ثلاثة من أصحاب الحرف يختصون بأحيائهم ولا يعتدى أحدهم على الآخر وهم المأذون الشرعى والفراش والحانوتى، وكان بين أبناء هذه الطوائف الثلاث ميثاق شرف.

ومنذ أيام محمد على قسمت القاهرة إلى ثمانية أقسام وجعل فى كل قسم مركزا للشرطة، وقد أطلق العامة على هذا المركز اسم «التمن» أو «القسم» ومازالت كلمه (القسم) مستخدمة حتى اليوم بينما اندثرت كلمة (التمن) فلا يستخدمها أحد، وقد كان لكل قسم من هذه الأقسام شيخ يطلقون عليه اسم (شيخ القسم) وكان لكل حارة أيضا شيخ للحارة وهذا التظام قديم وقد كان معمولا به فى عصر محمد على، وعندما أراد الباشا اختيار ثمانين صبيا لتعليمهم الصناعة كلف مشايخ الحارات باختيارهم.

وطبيعة عمل المأذون الشرعى ترتبط غالبا بالأفراح فى حفلات الزواج إلّا إذا حدثت حادثة طلاق. كما أن طبيعة عمل الحانوتى ترتبط دائما بالموت والأحزان.

أما الفراش فإنه يشترك فى الأفراح والأحزان.

وكان الحاج يسارع إلى إقامة سرادقات العزاء عندما يموت أحد من أبناء الحى غنيا أو فقيرا. وكان للعائلات الكبيرة مكان محدد لإقامة سرادق العزاء عندما ينتقل أحد أبناء أو بنات العائلة إلى رحمة الله بحيث يتوسط هذا السرادق بيوت هذه العائلة. أما الآخرون فكانت السرادقات تقام أمام بيوتهم فى الشوارع أو الحارات، وكان الحاج يقيم

سرادقات متواضعة للموتى الفقراء أيضا. وفى كل الحالات كان يتولى إحضار المقرئين للقرآن الكريم. والبن لصنع القهوة السادة التى تقدم للمعزين، ولا يوضع فيها السكر إظهارا لمشاعر الحزن على المتوفى، لأن السكر يستخدم فى الشربات الذى يقدم فى الأفراح والمناسبات السعيدة.

وفى سرادقات العزاء للأغنياء والموسرين كان الحاج يستدعى الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت حيث يتبادلان قراءة القرآن الكريم وهما أشهر قارئين فى القاهرة، وكان يقدم القهوة فى فناجين فاخرة والماء فى أكواب لامعة أنيقة على صوانى لها قيمة يقدمها سفرجية من الأفندية لابسى البدل السوداء.

ولم يكن يتقاضى أجرا على إقامة سرادقات العزاء للفقراء ولعله كان يعوض ذلك من الأغنياء الذين كانوا يدفعون له ما يطلب من مال بلا مناقشة لأنه كان ينوب عنهم فى معاونة أبناء الحى من الفقراء فيقيم لهم سرادقات العزاء مجانا بلا أجر.

وعندما توفى الملك فؤاد سارع الحاج بإقامة سرادق للعزاء أمام باب التشريفات الملكية بعد انتهاء جنازة الملك والتى شيعت من قصر القبة. ومرت أمام قصر عابدين ثم سلكت طريقها إلى جامع الرفاعى حيث توجد المدافن الملكية وهى التى دفن فيها شاه إيران فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات.

ولما عاد باشوات قصر عابدين من تشييع جنازة الملك وجدوا الحاج ورجاله منهمكين فى إقامه سرادق للعزاء عند باب التشريفات وكانوا يريدون تقبل العزاء داخل القصر وإعداد دفاتر التشريفات لكتابة كلمات المعزين من السفراء وغيرهم طبقا للقواعد الدبلوماسية فاستدعوا الحاج

وسألوه عما يفعل فأخبرهم بأنه يقيم سرادق العزاء للملك ولما أبدوا استغرابهم من هذا العمل الذى لم يكلفه به أحد، قال لهم إنه الواجب الذى يحتمه عليه عمله باعتباره فراش حى عابدين ومن تقاليد الحى إقامه مثل هذا السرادق لأبنائه جميعا من الأغنياء والفقراء على السواء، وما دام الملك من أبناء حى عابدين فقد أقام له سرادق العزاء قياما بهذا الواجب.

ولم يستطع باشوات القصر مخالفة هذه التقاليد خوفا من اتهامهم بمعارضة تقاليد الشعب المصرى وعاداته، وقد كان الملك فؤاد مكروها ومتهمًا بأنه ممالئ لسلطة الاحتلال البريطانى ضد الإرادة الشعبية، وقد هتف الشباب بسقوط الملك أثناء أحداث سنة ١٩٣٥ بعد يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ وهو عيد الجهاد الوطنى وذكرى اليوم الذى ذهب فيه سعد زغلول وعلى شعراوى وعبدالعزيز فهمى إلى دار المعتمد البريطانى للمطالبة باستقلال مصر فى عام١٩١٨ الذى أعقبته ثورة سنة ١٩١٩ المشهورة.

ولما أقام الحاج سرادق العزاء للملك أصيب باشوات قصر عابدين بالذهول، وتشاوروا فى الأمر فاستقر رأيهم على إقامة جناح خاص فى السرادق لاستقبال أمراء العائلة الملكية وأصهارهم وأصحاب المقام الرفيع والدولة والمعالى باشوات مصر من الوزراء وغيرهم.

ثم أعد الحاج الجناح الخاص بالأمراء فى سرادق العزاء وأخرجوا له من قصر عابدين السجاجيد العجمية الفاخرة وصالونات الأوبيسون المذهبة. والصوانى الفضية وفنجانات القهوة من البورسلين الفاخر وأكواب الكريستال الباهرة، وأوقفوا خدم القصر بثيابهم الحمراء المذهبة

فى هذا الجناح الملكى الملحق بسرادق العزاء لتقديم القهوة السادة طبقا للتقاليد المصرية بينما كان الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت يرتلان القرآن فى السرادق الشعبى المجاور لسرادق الأمراء.

وعندما ذهب بعض أعيان حيّنا لتقديم العزاء فى الملك لم يجدوا أحدا من أبناء العائلة الملكية يتقبل العزاء على العادة المرعية ولكنهم وجدوا أفنديا من التشريفاتية على باب السرادق واقفا كالتمثال لا يتحرك من مكانه، ولكنه يرمىء برأسه للمعزين وقد ارتدى بدلة سوداء لها ذيل طويل، فعاذوا وهم يتندرون بهذا الأفندى وبدلته السوداء ذات الذيل الطويل، وكانت لهم نكت وسخريات حول الأفندى الأخرس وبدلته ذات الذيل استمرت طول الليل.

أما حفلات الأفراح فقد كان للحاج فيها شأن وأى شأن فكان يقيم السرادقات للمطربين والمطربات ويعدّ الموائد فوق أسطح البيوت التى لم تكن عالية للمعازيم، وقد تكون هذه الموائد داخل الغرف فى البيوت الكبيرة الرحبة وفى أفنيتها والأماكن التى تصلح لها، وكان المعازيم يدعون إليها طائفة بعد طائفة بعد إعداد الموائد فى كل مرة إعدادا جديدا فترفع الأطباق وأدوات الطعام ليحل مكانها غيرها، وكان الطباخون والخدم فى تلك الليالى على استعداد دائم للقيام بتقديم الطعام لأعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال كما كان صاحب الفرح يستعد لذلك حتى لا يفضح بين أبناء الحى فيسرف إسرافا شديدا فى كميات الأطعمة حتى أننى فى بعض هذه الأفراح كنت أظن أن صاحب الفرح قد أطعم الحى بأسره.

وكانت للأفراح البلدية طقوس وعادات وتقاليد خاصة فيها يقدم فيها

من أطعمة وفى طريقة تقديم الطعام أيضا فكان الطعام يوضع فوق صينية مستديرة كبيرة مصنوعة من الحديد الملون بألوان زاهية يغلب عليها اللون الأحمر وقد رسمت عليه أشكال مختلفة من الزخرفة باللون الأصفر والأزرق والأخضر وكانت تسمى صينية العشاء، وتوضع فوق منضدة خشبية اسمها كرسى العشاء. وكان الطعام يوضع على الصينية فى أطباق كبيرة أو متوسطة من البورسلين وقد يكتب عليها فى بعض الأحيان اسم محل الفراشة أو توضع عليها علامات مميزة حتى لا تخلط بأطباق أخرى يملكها أصحاب الفرح. وكانوا يضعون حول هذه الصوانى كراسى الخيزران التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت وما زالت مستخدمة فى مقاهى القاهرة وقد رأيت أمثال هذه الكراسى فى بعض المطاعم العريقة فى لندن ولكن فى أشكال أكثر جمالا ورونقا ودقة فى الصنع. ويبدو أن هذه الصوانى الحديدية الملونة والكراسى وأطباق البورسلين قد وفدت إلى مصر منذ أيام الخديوى إسماعيل فقد كان من عادة المصريين استخدام الصوانى والأطباق المصنوعة من النحاس الأحمر الذى يبيضونه بالقصدير وكان مبيض النحاس من الشخصيات الهامة فى المجتمع المصرى، ولكن هذا المبيض اختفى من الحياة أو أوشك على ذلك بعد أن اختفت الأدوات والأوانى النحاسية التى كان يبيضها ومنها الصوانى والحلل والطاسات وصوانى القلل وغيرها من الأدوات.

اما كرسى العشاء الذى كانوا يضعون عليه الصينية فهو مصرى أصيل وهو يشبه كرسى السلطان قلاوون فى الشكل غير أن كرسى السلطان مصنوع من الفضة الخالصة وهذا الكرسى الذى أحدثك عنه كان يصنع من الخشب بطريقة بلدية ويغلب عليه اللون الأحمر الذى يزوقونه بلون نحاسى تشبها بالذهب.

وكانت الأطعمة التى تقدم فى هذه الأفراح لا تدخل فيها الأطعمة السائلة مثل الملوخية والبامية والقلقاس وغير ذلك مما يؤكل بالخبز ولكنها أطعمة جافة من اللحوم والكفتة وأصناف الضولمة المختلفة وهى الباذنجان الأبيض والأسود والفلفل الرومى والكوسة والطماطم التى تحشى بالأرز واللحم ومنها أصناف الفطائر التى تحشى بالجبن أو اللحم.

أما الحلوى فقد كانت أيضا من الأصناف الجافة التى لا تستخدم فيها الملاعق أو الشوك أو السكاكين التى لم تكن من أدوات أطعمة الأفراح فكانوا يقدمون صوانى البقلاوة والبغاشة والبسبوسة وأمثالها من أصناف هذه الحلوى التى كانت تقطع قطعا صغيرة يمكن تناولها باليد.

وكان فى القاهرة طائفة من الطباخين الذين يمارسون مهنة طهى الطعام فى بيوت الكبراء أو فى الأفراح والحفلات، وكان لهذه الطائفة أهمية وشهرة فى الجيل الماضى بسبب كثرة الأفراح والحفلات والولائم الكبيرة فى عصور الرواج الاقتصادى الذى كانت تعقبه دائما نكسات اقتصادية ففى عصر الخديوى إسماعيل أقام أفراح الأنجال عندما زوج أبناءه وبناته وظلت ليالى هذه الأفراح أربعين ليلة وأقيمت فى حى المنيرة وهو الحى الذى كانت فيه مدرسة دار العلوم التى هدمت وأصبح مكانها حديقة وأمامها شارع اسمه شارع (أفراح الأنجال) وفى ليالى الفرح تبارى الطباخون فى صنع الأطعمة والحلوى التى قدموها للمعازيم أى المدعوين إلى هذه الأفراح.

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى وفى أعقابها ارتفع سعر القطن ارتفاعا خياليا كما ارتفع سعر البترول فى أعقاب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ بصورة خيالية من ثلاثة دولارات إلى ثلاثين أو أربعين دولارا للبرميل

مما جعل أصحاب البترول يعيشون فى بريق الذهب، وهكذا حدث عندما ارتفعت أسعار القطن بعد الحرب العالمية الأولى. وقد ذكر أحد المؤرخين الإنجليز وهو المستر يونج أن بدراوى باشا عاشور أودع فى البنك الأهلى نصف مليون جنيه من الجنيهات الذهبية، وقد قرأت فى الصحف أن الجنيه الذهبى ثمنه ٢٣٠ جنيهًا ورقيًّا..... فتأمل.

ماعلينا......... نعود إلى حكاية الطباخين.

كان الطباخ شخصية من الشخصيات المهمة والمؤثرة فى حياة القاهرة فى تلك الأيام؛ لأنه هو الذى يسيطر على حفلات الأفراح والولائم والمناسبات التى كان يهتم فيها الناس بالطعام اهتماما ملحوظا، وكانت للطباخين دولة تماثل دولة المطربين والمطربات ولكن أسماء الطباخين لم تشتهر مثل شهرة أسماء أهل الطرب ولكن بعض هؤلاء الطباخين كانوا من أصحاب الأسماء اللامعة أيضا فى هذا الجيل ومن أشهرهم (عزوز العشى) الذى كان له مطعم معروف فى شارع عماد الدين أمام محلات جاتينيو الآن.

وكلمة (العشى) معناها الذى يعد طعام العشاء، وكانت لعزوز هذا نوادر مع المشهورين من أهل الفن فى مصر ممن اشتهروا بإقامة المباريات فى تناول الطعام وكانت هذه المباريات معروفة فى القاهرة وكان الناس يتراهنون عليها، وقد شاهدت رجلا يتراهن على أكل عشر فطائر بالسمن البلدى من دكان فطاطرى فى حينا وتحداه المتراهنون فقبل التحدى وأكل الفطائر العشرة ولكنه مات بعد ذلك.

وكانت أشهر الفرق التى تتراهن على تناول كميات كبيرة من الطعام هى فرقة الأستاذ زكى طليمات الممثل والمخرج الشهير، وكان مكانها

المختار هو مطعم (عزوز العشى) فكانوا يأكلون حتى يفرغوا آنية الطبخ من محتوياتها ولا يبقى فيها إلا الحساء أو (الشوربة) فيشربونها، وكانت هذه الفرق من هواة الأكل يطلق عليهم اسم (الدباغين) وكانت لهم شهرة عظيمة فى الجيل الماضى.

وعندما كلفت أثناء عملى الرسمى بإقامة احتفالات افتتاح السد العالى أيام الرئيس جمال عبد الناصر، وكان المدعوون أكثر من تسعمائة شخصية عالمية ومصرية أعد لهم قطار خاص من القاهرة إلى أسوان لم أجد أمامى غير (عزوز العشى) للوفاء بإطعامهم خلال أيام الاحتفال، وقد أدّى هذا العمل عن جدارة وفى ذوق رفيع يرضى كل الأذواق.

وقد كانت المطاعم الكبرى فى القاهرة تحمل أسماء المشهورين من الطباخين والسماكين والكبابجية الذين كانوا يعدّون الأطعمة المختلفة بأنفسهم وكان الناس يأكلون عندهم بسبب شهرتهم فى أعمالهم، ومازالت بعض هذه الأسماء التى كانت لها شهرة بسبب أصحابها موجودة ولكن أبناءهم وأحفادهم لم يعرفوا سبب هذه الشهرة التى ورثوها ففقدت هذه المحلات أو المطاعم قيمتها الحقيقية وبقيت لتزاحم فى زحمة الحياة الحاضرة من أجل المكسب ولكن بلا قيمة.

ولكن حكايات الدباغين وهم الذين يأكلون ولا يشبعون مازالت تستهوينى وقد أردت منذ البداية أن أحدثك عنهم ولكن الكلام أخذنا فتحدثنا عن الفراشين والحانوتية ومأذونى الشرع والطباخين وغيرهم وكلام آخر يقلب الدماغ.

والدباغون كانوا معروفين فى القاهرة ولكنهم كانوا من الشخصيات المجهولة فى أغلب الأحيان. ويبدو أن أهل القاهرة أطلقوا لقب الدباغين

على هذه الطائفة لأنهم كانوا يدبغون بطونهم كما تدبغ الجلود فلا تتأثر بما يأكلون لأن جلود بطونهم أصبحت مدبوغة مثل الجلد.

وفى القاهرة شارع اسمه (شارع المدابغ) كانت توجد فيه مدابغ الجلود التى نقلت إلى حى المدابغ فى مصر القديمة وكان شارع المدابغ فى قلب القاهرة فى حى عابدين ثم تضايق منها الناس فنقلت بعيدا.. ولكن البعيد أصبح قريبا الآن بمضى الزمن.

أما الدباغون فقد عرفت بعضهم وكنت أعجب من أمرهم وهم ليسوا فى القاهرة وحدها بل هم فى كل مكان، وقد ذهبنا ذات يوم لتقديم واجب العزاء لأحد أصدقائنا فى قريته واضطرتنا ظروف الجو وهطول الأمطار إلى المبيت عندهم فى القرية وقد اعتذر سائق السيارة عن عدم استطاعته العودة إلى القاهرة خوفا من الغرق فى إحدى الترع، فأقمنا عندهم ليلتنا وصباحنا.

وفى الليل قدموا لنا طعام العشاء بكرم زائد على طريقة أهل القرى عندنا حين ينزل عليهم ضيف، وكانت المائدة حافلة مليئة بأطباق المأكولات المختلفة من الحادق أى المملح إلى الحلو أى المسكر. وعليها من أصناف اللحوم والطيور والفاكهة ما يعجز البصر عن إدراكه. وقد جلس بجانبى مأذون القرية وكان من مشاهير الدباغين، فأكل واستوفى حقه من اللحوم والطيور والأطعمة المسكرة ثم أتبع ذلك بالشمام والبطيخ فأكل منها ما شاء.

وبعد أن أكل البطيخ والشمام بدأ يعيد الكرّة على الأطعمة فعجبت لأمره وسألته عن ذلك. فقال لى إن البطيخ والشمام قد صنع حاجزا بين ما فات وما هو آت، ثم أردف قائلا إن البطيخ والشمام وأمثالها من فاكهة

الصيف كالعنب والتين والرمان تفتح الشهية للطعام، وإن الناس يخطئون حين يعتقدون أنها تختم الأكل مثل الحلوى ولكنهم فى ليالى العزاء لا يقدمون صوانى البقلاوة والبغاشة والبسبوسة لأنهم يعتقدون أنها من لوازم الأفراح.

وكان هذا الرجل أى المأذون الشرعى للقرية نحيلا ولم يكن بدينا وفى الصباح عندما استيقظنا مبكرين لنرحل كان هذا الرجل بجوارى على مائدة الإفطار فى الساعة السابعة صباحا وكانت مثل مائدة العشاء مع اختلاف المأكولات التى قدمت عليها. وكان أمامنا وعاء فيه بيض مسلوق فاستفتح الشيخ بازدراد أكثر من عشر بيضات، ثم بدأ يمارس هواية الدبغ فامتدت يده إلى الفطير والعسل والجبن بلا رفق ولا هوادة.. وشرب من فناجين الشاى واللبن ما يكفى لإتمام هذا العمل العجيب.

وظننت أن الشيخ المأذون الشرعى قد وجد فرصة سانحة للتغذية فى هذه المناسبة ولكن أحدهم قال لى إن هذه هى طريقته فى كل المآدب التى تقام فى القرية، وعرفت لماذا كان الجاحظ يلاحظ الثعابين وهى تزدرد البيض وأفراخ الحمام فى نهم شديد لا يتوقف وأدركت أن ثعابين البشر تستطيع أن تفعل ذلك أيضا.

وعرفت واحدًا من كبار الدباغين مصادفة، فقد شاءت الظروف أن أبقى ساعة الظهيرة فى دار إحدى المجلات الأسبوعية وكانت لها مطبعة فى نفس المبنى كنت أطبع فيها بعض الكتب وجاءنى هذا الرجل. وكانت بينى وبينه مودّة ليحدثنى عن تأخرى فى طعام الغداء وقد أبقى فى هذه الدار حتى الخامسة مساء، فطلبت منه أن يحضر لنا طعامًا ودعوته إلى مشاركتى فى تناول الغداء وإحضاره من حى السيدة زينب. وهو الحى

القريب من هذه المطبعة فطلب الطعام من المطعم عن طريق التليفون، وعرفت أنه من الزبائن المشهورين عند أصحاب هذا المطعم.

ودخل علينا الغرفة خادم المطعم وهو يحمل صينية كبيرة تنوء بما حملت من أطباق ووضعها على المنضدة وسألت صاحبى إن كان قد دعا أحدا ليتناول الطعام معنا، فقال لى إن هذا الطعام لنا نحن الاثنين ولما أبديت عجبى.. بادرنى قائلا إننى أستطيع أن آكل ما أشاء وعليه هو أن يقوم بالباقى.

وخلال تناول الطعام أرسل رجلا من أعوانه ليشترى لنا موزا وبرتقالا وجاء الرجل يحمل قرطاسين كبيرين يكفيان أسرة كبيرة لمدة أسبوع.

وبعد أن أصبحت أطباق الطعام خاوية على عروشها بدأ يأكل الموز فأتى عليه بعد أن أخذت منه واحدة وهكذا فعل بالبرتقال الذى كان نصيبى منه برتقالة واحدة أيضا.

وبعد أن فرغ من كل هذا قال لى إنه كان قد أفطر فى الصباح إفطارا خفيفا لا يتعدى عشر بيضات وفنجان شاى.

وكانت مباريات الدباغين تقام عادة فى مطاعم الكباب الكبرى التى تستطيع تلبية طلبات أصحاب المباراة الذين كانوا يتراهنون على أكل أرطال الكباب وكان صاحب الرقم القياسى هو الذى يفوز فى المباراة لأنه أكل ثلاثة أرطال أو ثلاثة أرطال ونصف الرطل من الكباب.

أما مآدب الدباغين فقد كانت خطيرة جدا، وقد انتهت بعضها بمآس فظيعة، وقد عرفت واحدا منهم كان يأكل أربعة أزواج من الحمام المحشو بالأرز.. أو الفريك قبل البدء فى تناول طعام الغداء.... وعين فى وظيفة

كبيرة بإحدى مدن الصعيد فأقيم له حفل عشاء لتكريمه ليلة وصوله ولما جلس إلى المائدة لم يقم حتى فارق الحياة.

وقد شاهدت أحدهم فى وليمة وقد وضعوا أمامه فخذ خروف ليتسلى بلحمها أثناء تناول الطعام.

إن نوادر الدباغين كثيرة وبعضها مضحك كما أن بعضها الآخر مؤسف. وقد شاهدت أناسا يتراهنون على رجل يستطيع أن يأكل صينية بسبوسة أو يشرب عشر زجاجات من المياه الغازية.

وهذه النوادر توجد فى بلاد كثيرة ولها قصص تروى على سبيل التسلية وقد سمعت قصة منها فى إحدى المدن الألمانية، وهذه المدينة لها سور وباب مثل باب زويلة، ولكنهم يغلقونه ساعة غروب الشمس ويفتحونه ساعة شروق الشمس، مع أن الشمس عندهم لا تكاد تظهر، ولكنهم يحددون ساعة الشروق والغروب.

ولهذه المدينة حكاية فقد حاصرها الأعداء فأغلقت بابها وطال حصارها فقبل بعض حكماء المدينة إنه لو استطاع العمدة أن يشرب قدحا من البيرة به ستة لترات مرة واحدة بحيث لا ينزله من بين يديه ولا يفارق شفتيه، فإن الحصار سيرفع عن المدينة فصنعوا هذا القدح الذى يتسع لستة لترات وأقاموا احتفالا ووقف العمدة واستطاع شرب قدح البيرة كما اشترط الحكماء فرفع الحصار عن المدينة.

وقد خلدوا هذه القصة فى الساعة الدقاقة المقامة فوق مبنى مجلس المدينة، وهذه الساعة تدق فى الساعة الثانية عشرة ظهرا ثم يفتح فيها باب ويخرج منه تمثال رجل بدين وأمامه قدح كبير من أقداح البيرة يكاد طوله يبلغ طول التمثال ويمد تمثال العمدة يديه إلى القدح ويرفعه ويشرب

ثم يضعه عندما تكتمل دقات الساعة ويعود إلى مكانه ويغلق الباب.

ويذهب الناس للفرجة على هذه القصة التمثيلية كل يوم فى منتصف النهار.

ويبدو أن عصر الدباغين قد انتهى، وهو من العصور القديمة التى لا يمكن أن تدور أحداثها فى هذا العصر.

على نيـــابة

كانت شخَصية على نيابة من أهم الشخصيات فى حى الحسين فى الجيل الماضي، بسبب زيه وعظمته وجنونه واستهتاره، فكان هو خديوى حى الحسين بلا منازع، وكان أعظم مجاذيب الحسين شأنا.

وقد اشتهر مجاذيب القاهرة، وكانوا ينتسبون فى الغالب إلى السيدة زينب وسيدنا الحسين رضى الله عنهما، وكانت طائفة المجاذيب هذه ومازالت تضم النساء والرجال وتعيش على باب الله أى أبواب المساجد الكبيرة فى القاهرة وغيرها من المدن المصرية، ولهم أحوال غريبة وقصص أغرب فهم يقولون كلاما يشبه الألغاز بسبب اضطرابهم النفسى، ولكن الناس يسمعون هذا الكلام فيفسره كل واحد على هواه أو طبقا للحالة التى يوجد فيها أو ما يطلبه لنفسه من مطالب خاصة مثل كسب القضايا أو النجاح فى الامتحان أو الشفاء من مرض وغير ذلك مما تتعرض له حياة الإنسان.

والمجذوب ليس متصوفا زاهدا فى متاع الدنيا، ولكنه شخص أصيب بكارثة ففقد توازنه العقلى والعاطفى وأصبح يرتكب ما يحلو له بلا حساب ولا عقاب ومنهم من يكون متوسط الانجذاب فيترك عمله وبيته وملابسه ويرتدى جلبابًا ثم يلوذ بضريح من أضرحة الأئمة أو السيدات

الطاهرات الشريفات من سلالة الشجرة النبوية المباركة. ويجد راحته فى هذه الأضرحة لأنها تمنحه جوا روحيا ينقذه من العذاب النفسى الذى وقع فيه.

ومن هؤلاء المجاذيب من يضع على جسده جوالا من الخيش ويمسك فى يده عكازًا. ويظل طوال ليله ونهاره طائفًا حول الأضرحة ويجد طعامه فيما يقدم من نذور عند هذه الأماكن وأغلبه من الفول النابت والخبز وقد يكون من اللحم أيضا فهناك من ينذر خروفا أو عجلا ويذبحه عند هذه الأضرحة ليوزعه على هؤلاء المجاذيب وغيرهم من الفقراء والشحاتين.

وقد نسب الشيخ عبد الوهاب الشعرانى بعض هؤلاء المجاذيب إلى التصوف والصوفية. ولعله فعل ذلك بسبب مشاهدته لأحوالهم وحالاتهم التى تلوذ برحمة الله، ولا تكف عن ذكر الله، وهو الملجأ الأول والأخير فاعتقد فيهم الصلاح والتقوى.

ولكن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى كان يحمل عليهم بشدّة وعنف ولا يرى فيهم شيئاً من الدين أو تقوى الله.

وإلى جانب هؤلاء المجاذيب كانت توجد طائفتان أخريان فى القاهرة من هؤلاء العاطلين الذين لا عمل لهم. وهما طائفة الحرافيش وطائفة الشحاتين. وقد اندثر الحرافيش ومازال الشحاتون موجودين. ويبدو أن الشحاتة حرفة عالمية فقد رأيت فى متحف قلعة وندسور فى لندن تمثالا لشحات جالسا على دكة وقد مدّ يده للسؤال وقد كان ذلك فى عصر الملكة فيكتوريا وهو العصر الذهبى للإمبراطورية البريطانية التى كانت الشمس لا تغيب عن مستعمراتها.

وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر أصدر نابليون بونابرت

قانونا للشحاذة فى القاهرة وهذا القانون مكون من خمس مواد وقد ترجمه رفاعة رافع الطهطاوى وهو من أطرف القوانين التى تلفت النظر. ومواد هذا القانون هى:

المادة الأولى: جميع الناس الذين يسألون الناس فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم وحضورهم أمام ضابط مصر ثم يتوجهون إلى سجن القلعة ما لم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الأشغال.

المادة الثانية: كل ملة من الإسلام والنصارى أروام وقبط وشوام ومن اليهود أيضا تعمل من الآن فصاعدا حانوتا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون معدًّا لهم.

المادة الثالثة: كل رئيس ملة يلزم بلوازم حانوته وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الأكل والشرب وخلافه تتقرر على أهالى الملة المذكورة.

المادة الرابعة: فى مدة تدبير الحوانيت وترتيبها يأمر كل كبير ملة بجمع كافة فقراء ملّته ويرضيهم ويعطيهم لوازم الأكل والشرب والسكنى إلى حد إنهاء تدبير الحوانيت المذكورة واستكمالها.

المادة الخامسة: يجب على كبير كل ملّة أن يتبصر فى أمر تدبير الحانوت لملّته وأخذ الأمر اللازم من شيخ البلد ويسعى فى إتمامه.

هؤلاء هم الحرافيش

أما الحرافيش فقد كونوا طائفة خطيرة فى القاهرة وقد بلغ عددهم أربعة آلاف حرفوش.. ولهم شيخ يطلق عليه اسم شيخ الحرافيش. وكانت لهم سطوة حتى أنهم يجتمعون ومعهم شيخهم ويذهبون إلى القلعة فى المواسم والأعياد والمناسبات وهى كثيرة جدا.. ويقفون تحت أسوار القلعة لطلب العادة وهى بعض أرغفة الخبز ورطلان من اللحم لكل حرفوش مع دينار ذهبى على الأقل ولا ينصرفون إلّا إذا أخذوا العادة. وكان بعض السلاطين ينزلون إليهم من القلعة ليفرقوا عليهم الأموال ويصرفوهم حتى يعودوا إلى أماكنهم على أبواب المساجد الكبيرة مثل جامع الحسين والسيدة زينب والإمام الشافعي وغيرها.

وقد نزل إليهم السلطان الغورى ذات مرة بعد أن أرسل إليهم الخبز واللحم ليمنحهم العادة وهى دينار لكل حرفوش؛ وكان معه خمسة آلاف دينار ولكنها لم تكف وصاح كثيرون منهم فى السلطان الذى أمر بإحصاء عددهم فوجدهم أربعة آلاف حرفوش، فجن جنونه وقال لحاشيته:

كيف لا تكفى خمسة آلاف دينار وهم أربعة آلاف حرفوش؟

وبرغم ذلك اضطر لإحضار ألوف أخرى من الدنانير حتى يصرفهم

من تحت أسوار القلعة. وقد كان الحرفوش يتقدم أكثر من مرة ليأخذ دينارا من السلطان.

وقد كان هؤلاء الحرافيش يذهبون إلى السلطان فى قلعة القاهرة فى عيد الفطر وعيد الأضحى وليلة رؤية هلال رمضان ويوم وفاء النيل ويوم دوران المحمل فى القاهرة.. وفى أيام أخرى كثيرة يعرفونها مثل رؤية الهلال فى أول كل شهر.. ويوم يغير السلطان ملابس الشتاء بملابس الصيف ويوم تحدث حفلات زفاف للعرائس أو ختانات للمواليد فى القلعة أى أنهم لا يتركون مناسبة من المناسبات إلّا وطلبوا العادة التى حددوها بأنفسهم وهى أرغفة الخبز ورطلان من اللحم ودينار..

أما المجاذيب فرزقهم على الله ولا شأن لهم بالسلطان وهم لا يطلبون كسوة ولا لحما وبعضهم يلبس الخيش ويأكل رغيفا به بعض حبات الفول النابت مما يقدمه الناس فى النذور. وهذا النذر معروف ومشهور فى القاهرة منذ زمن بعيد وقد ذكر على باشا مبارك أن بعض الناس كانوا يرسلون إلى جامع الحسين وجامع السيدة سحّارات كبيرة مملوءة بالخبز وفول النابت الذى يوضع داخل كل رغيف.

ولكن النذر الذى يقدم إلى السيد البدوى فى طنطا وإبراهيم الدسوقى فى دسوق يكون عادة من الخراف والعجول، وهذه النذور ليست قاصرة على مصر أى على المسلمين كما يتخيل بعض الناس فقد ذهبت يوما إلى مستشفى فى أحد المدن الألمانية يوم الأحد لأشاهد طريقتهم فى تقديم النذور، ودخلت فى بدروم المستشفى مع أحد الأصدقاء الألمان.. وجلسنا إلى مائدة فقدمت لنا إحدى الراهبات كما كانت تقدم لغيرنا سلة صغيرة بها فوطة بيضاء فوقها رغيف صغير لطيف على وجهه حبة البركة وفى

السلة ملح مخلوط ببعض التوابل مما يشبه (الدقّة) المصرية المعروفة كما قدمت قدحا صغيرا من النبيذ المقدس..

وكان الناس يأكلون الخبز ويشربون النبيذ ثم يضعون فى السلة تحت الفوطة البيضاء نذرهم الذى نذروه. وقال لى صاحبى الألمانى إن هذه النذور الأسبوعية تنفق على هذا المستشفى الكبير الذى أنشئ لتخليد ذكرى الدكتور روتنجن مخترع الأشعة المعروفة باسمه..

وقد شاهدت فى قاعة صغيرة فى قلعة فارتبورج التى أوى إليها (مارتن لوثر) بعد أن حكم عليه بابا روما بإهدار دمه أناسا ينحتون الجدار بأظافرهم حتى يحصلوا على ذرات من جير هذا الجدار فعجبت من أمرهم - وسألت عن السرّ فى هذا الأمر فعلمت أن مارتن لوثر ترجم الكتاب المقدس فى هذه القاعة. وذات ليلة خيل إليه أن الشيطان قد دخل إليه فقذفه بالمحبرة التى كان يغمس فيها ريشته ليكتب وانكسرت المحبرة فوق هذا الجدار وغطته بالحبر؛ ولذلك فإن الناس ينحتون فى الجدار بأظافرهم ليحصلوا منه على ذرات يصنعون منها أحجبة تمنع عنهم كيد الشيطان، فلا تعجب إذا رأيت نساء يعلقن خرقا من الثياب أو المناديل على مسامير بوابة المتولى أى باب زويلة من أجل مقاومة كيد الشيطان الذى أبعد الحبيب الهاجر أو جعل الزوج يتزوج امرأة أخرى، فهذه الأعمال كلها من أعمال المجاذيب الذين فقدوا عقولهم..

ولكن على نيابة أشهر مجذوب عند سيدنا الحسين كانت له صنعة خاصة، فقد اختار لنفسه زىّ عباس باشا الأول والى مصر وحفيد محمد على. وكان عباس الأول يرتدى بدلة لها جاكتة مقفولة بالزراير مما كان معروفا باسم الاستامبولية ويبدو أنها كانت من أزياء أمراء آل عثمان فى

اسطنبول وقد أعجبته فقلدهم فى ارتدائها وكان يضع على صدره عددا كبيرا من النياشين. وكان لهذه الجاكتة الاستامبولية حزام يعلق فيه عباس الأول سيفه. كما كان يضع على رأسه طربوشا له زر طويل.

ويبدو أن على نيابة كان شديد الإعجاب بعباس الأول فقلده فى زيّه الذى لم يلبسه أحد من حكام مصر غير عباس ولم يقلده أحد فيه إلّا على نيابة الذى صنع لنفسه سيفا خشبيا بدل سيف عباس الذى كان يستخدمه فى سفك الدماء. ولعل (على نيابة) سرق هذا السيف الخشبى من أحد المساجد، فقد كان من عادة أئمة هذه المساجد أن يصعدوا المنبر يوم الجمعة لإلقاء الخطبة وفى يد الواحد منهم سيف خشبى، ولا أدرى لماذا كانوا يفعلون ذلك؟؟

أما نياشين عباس الأول فقد استبدل بها على نيابة أغطية زجاجات المياه الغازية التى كان يزين بها صدره وقد كان من هواة جمع هذه الأغطية، وكان يحلو له دائما أن يستبدل بالقديم الذى رصع به سترته أغطية جديدة مختلفة الأشكال والألوان..

وكان على نيابة يجلس على دكة خشبية من دكك المقاهى فى حى الحسين عند الباب الأخضر. وعندما تأخذه الجلالة يقف على الدكة ويمتشق سيفه الخشبى، ويصيح:

- مدد يا حسين مدد.. تحقيق.

وفى هذه اللحظات يتجمع الناس من حوله فيزداد صياحا:

- تحقيق... تحقيق.

ثم تبدأ المباراة الكلامية، ويوجه على نيابة الاتهامات إلى الناس

الواقفين من حوله ويفتح المحضر وكان بعض الناس يستمتعون بهذه المباراة.. ويجيبون على أسئلته واتهاماته، ومنهم من يعترف بأنه مذنب ومنهم من لا يعترف، ويظل الحوار بينه وبينهم حتى يتعب فيجلس على الدكة الخشبية وسيفه الخشبى بجانبه ويقول:

- القرار بعد الجلسة.

يبدو أن على نيابة كان كاتب نيابة وفصل من وظيفته فاضطرب عقله.. وأطلق على نفسه اسم: على نيابة.

ولكن من يعرف السر؟؟

النجار الفيلسوف

عندما مات الأسطى أحمد النجار.. واستعدوا لتشييع جنازته، حدثت أحداث غريبة فى الحارة. فقد جاء قوم غرباء على رأسهم رجل يرتدى عمامة غريبة وجبّة أغرب، فكانت عمامته عالية ملفوفة بشاش أبيض على طربوش طويل، وكانت جبّته السوداء قريبة الشبه بجبب الحاخامات أو الرهبان أو غير ذلك مما لا يألفه الناس فى ثياب المشايخ.

وفجأة أظلمت السماء فازداد صراخ النساء وندبهن على الأسطى أحمد النجار، بينما كان هذا الشيخ الغريب يتحاور مع أقاربه فى الحارة ويبلغهم أنه جاء مع رفاقه لأخذ جثته ودفنها فى مدافن البهائيين فى العباسية، وازداد الجدل والصخب وصراخ النساء كما زاد إظلام السماء وغلا الغبار فى الجو.

وقال أقارب الأسطى أحمد إنه لا يمكن أن يدفن إلّا مع أهله وآبائه فى مقابرهم، فجلس الشيخ الغريب على كرسى فوق الرصيف فى الحارة وأخرج من جيبه ورقة وقال لهم: هذه هى وصية الأسطى أن يدفن حين يموت عندنا فى مقابرنا. فقال أخ له: ولكن الأسطى لم يكن يقرأ ولا يكتب فكيف كتب هذه الورقة؟

وحدث هياج شديد فى الحارة. وقام أهل الأسطى الفقيد بطرد الغرباء وأتموا ما اعتزموا عليه من تشييع جنازته طبقا للتقاليد والعادات وانتهى الإشكال ولكن ثرثرة الناس وهمساتهم لم تنته، وظلوا أياما يتحدثون عن هذا الحادث الغريب.

كان الأسطى أحمد من مشاهير النجارين فى القاهرة، عندما كان الناس يتحدثون عن المشاهير فى كل حرفة أو صناعة. وكنا نسمع عن نجار شهير فى باب الخلق. وعن حداد شهير فى حى القلعة. وقد ظهرت صناعات حديثة فى القاهرة منذ عهد الخديوى إسماعيل وأقيمت أبنية على الطريقة الأوربية ومارس هذه الصناعات بعض الإيطاليين والفرنسيين الذين يصنعون الأبواب والشبابيك الحديثة والحديد المشغول الذى يركب فى البلكونات والدرابزينات والأسوار وغيرها، وتبع ذلك صنع غرف النوم والمائدة والصالونات الحديثة التى تناسب هذه البيوت، ثم بدأ المصريون يتعلمون هذه الصناعات ويمهرون فيها، وكان الأسطى أحمد النجار من هؤلاء المهرة فى صناعته.

وكان النجارون المشتغلون بصناعة الأرابيسك لهم شهرة أيضا، وقد عرفت واحدا منهم فى درب سعادة عند باب الخلق وكان مشهورا بصنع منابر المساجد وقد يستغرق المنبر فى صنعته عاما كاملا أو أكثر من عام. ومن أعاجيب هذه الصناعات أن نجارا فى حيّنا كان مشهورا بصناعة قوالب الكحك والغريّبة وكان هذا القالب قطعة من الخشب المحفور بأشكال زخرفية جميلة، وكان هذا النجار يمارس صناعته فى شهر رمضان من كل عام.. وكان نقش قالب الكحك أكبر حجما من قالب الغريّبة. وقد اشتهر هذا النجار بهذه الصناعة حتى أن بعض أهالى الأرياف كانوا

يحضرون لشراء هذه القوالب منه فى شهر رمضان، وقد اندثرت هذه الصناعات القديمة ومنها أيضا صناعة قباقيب الحمام، وكان أشهرها قبقاب العروس الذى كان يصنع من الخشب الثمين المحلى بالفضة فى بعض الأحيان، وقد استخدمت شجرة الدر هذه القباقيب فى قتل زوجها عزالدين أيبك مما اشتهر على صفحات التاريخ.

وكان هناك نجارون لصناديق العرائس وهو فن مصرى قديم اندثر أيضا. وكانت هذه الصناديق تصنع فى حارة الصناديقية المواجهة للجامع الأزهر، وكانت تتفاوت بين الصناديق الثمينة الملونة المحلاة بالصدف والفضة حتى الصناديق الرخيصة المحلاة بالصفيح. وكانت هذه الصناديق تخصص لحفظ الثياب والمجوهرات وآنية العطور والأشياء التى يعتقد أصحابها أنها ثمينة..

ولكن الأسطى أحمد النجار كان يصنع الأثاث الحديث وقد تطورت صناعته مع الزمن فكان أمهر نجار فى القاهرة يصنع صناديق الراديو عندما كانت آلات هذا الجهاز توضع داخل صندوق خشبى كبير، وكان يعدّ له رفًا يعلق على الجدار ليوضع فوقه هذا الصندوق الذى أخذ بألباب الناس.

وكنت شديد الإعجاب بالأسطى أحمد النجار، وكنت أجالسه كثيرا، فقد كان جارنا وابن حيّنا، وكانت ورشته عظيمة تمتاز بالترتيب والتنظيم والدقة وقد أعجبتنى صناعة النجارة فى صباى وشبابى وكنت أهواها وظلت من هواياتى سنوات طويلة. وهى هواية جميلة بديعة وقد كدت أشترى صندوقا لآلات النجارة الكهربائية خلال إحدى رحلاتى إلى ألمانيا وترددت فى الشراء بسبب وزن الصندوق الذى كنت أريد أن أحمله

معى فى الطائرة فقد كان هذا الصندوق ثقيل الوزن ولكنه كان ممتعا ومازلت حتى اليوم آسفا عليه؛ لأننى لم أستطع امتلاكه واستخدام آلاته فى ممارسة هوايتى، وقد كان أحد أقاربى قد خصص غرفة فى حديقة بيته لممارسة هواية النجارة وهى من الهوايات الرائعة، وقد اشتهر بها الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر، وقد رأيت أحد الأتراك من جيراننا فى حى عابدين يمارس هذه الهواية وقد أعدّ لها كل عدّتها فى حديقة بيته أيضا.

ولكن الأسطى أحمد النجار كان نجارا محترمًا ولم يكن من الهواة، وقد أعجبنى فيه طريقة حديثه وثقافته مع أنه كان أيضا لا يقرأ ولا يكتب، ولم أكن أعرف مصادر ثقافته حتى وقعت المفاجأة التى أذهلتنى.

وجدت الدكتور باول كراوس يجلس مع الأسطى أحمد النجار على الرصيف المواجه للورشة وهما يتناجيان..

كنت فى هذا الوقت طالبا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وكان الدكتور كراوس أستاذًا لى فى هذه الكلية، وهو من كبار المستشرقين فى هذا العصر، وكان يهوديا ألمانيا نمسويا. هاربا من فظائع النازى. وقد وجد فى القاهرة الأمن والأمان وعينه الدكتور طه حسين أستاذا للغات السامية وفقه اللغة فى كلية الآداب، وكان الدكتور كراوس أستاذا عظيما فى اللغات، وكانت له اهتمامات خاصة فى الأدب العربى والفلسفة الإسلامية وقد نشر بعض رسائل الجاحظ، وقد ربطت بينى وبينه صداقة وأنا تلميذ وهو أستاذ، وكنت أحب مسايرته والحديث معه، وكان من عادته المشى من مبنى الجامعة فى الجيزة إلى منزله فى الزمالك فلا يركب الترام ويضطرنى فى كثير من الأحيان إلى مصاحبته فى هذه الرحلة التى كنا نتوقف فيها كثيرا

تحت ظلال الأشجار على شاطئ النيل عندما تصل المناقشات إلى حد يوجب الوقوف.

وكان من عادة الدكتور كراوس أن يأتى كل يوم جمعة ليجلس على الرصيف مع الأسطى أحمد النجار. وكان الأسطى يعدّ لهذه الجلسة كرسيين من الكراسى الجميلة التى كان يصنعها، وكانت عينه على الورشة وأذنه مع الدكتور كراوس. وقد عرفت ذلك فكنت أكتفى بإهداء التحية إلى هذين الصديقين، ولكننى لا أعلم فيم يتحدثان، ولكن الأسطى كان يستوقفنى أحيانا عندما يكون وحيدا ويسألنى عن موضوعات فلسفية عميقة ويناقضنى فى هذه الموضوعات ثم يعود إلى عمله فى الورشة، واعتقدت أن الدكتور كراوس هو السبب فى ذلك، وأنه جذب تفكير الأسطى أحمد نحو هذه الموضوعات. وعندما ماتت زوجة الدكتور كراوس وقد اشتركت فى تشييع جنازتها من المستشفى التى كانت تضع فيه طفلها فماتت أثناء الولادة هى والطفل. استبد الحزن به وتغيرت طريقة حياته وحول شقته فى الزمالك إلى مكتبة فلم تعد بها غرفة، وتولى الأسطى أحمد عملية إزالة الجدران وصنع الرفوف وأعد لصديقه مكتبًا ومقعدًا وشماعة ملابس وأريكة مريحة يجلس عليها ضيوفه وينام هو عليها عندما يذهب الضيوف. وعاش الدكتور فى هذا المحراب حتى انتحر ذات ليلة وشنق نفسه بحبل الروب فى الحمام.

كان الدكتور باول كراوس من الشخصيات العالمية بين المستشرقين، وكان الأسطى أحمد من الشخصيات المجهولة التى عرفتها بطريق الصدفة ولكنهما كانا صديقين حبيبين.

وقد جرى ذكر الدكتور كراوس أكثر من مرة عندما كنت أزور

الدكتور يوهان فوك مدير معهد الدراسات الاستشراقية فى جامعة مارتن لوثر بمدينة هالة الألمانية على مقربة من مدينة لايبزج، وكانت شقته الواسعة مكتبة أيضا ابتداء من باب الدخول حتى الغرف الكثيرة، ولعله كان يضع كتبا فى غرفة نومه فذكّرنى ذلك بشقة الدكتور كراوس فى الزمالك، وقال لى الدكتور فوك إن كراوس كان يعرف أكثر من اثنى عشرة لغة معرفة كاملة فى نحوها وصرفها ومفرداتها وأسرارها، ولكن جنون العبقرية دفعه إلى الانتحار.

أما الأسطى أحمد النجار فقد كان أميًّا كما قلت لك، ولكنه كان شديد الذكاء واسع الثقافة، وعندما انتقلت من حىّ عابدين وسكنت فى حلوان كان يزورنى فى كثير من الليالى ويناقشنى فى موضوعات فلسفية إسلامية مما يدعونى إلى مراجعة بعض الكتب فكان يطلب منى أن أسمعه ما أقرأ فى كتب الغزالى أو ابن عربى أو ابن رشد، وكان من أعظم هواياته صنع رفوف الكتب. فيسعد سعادة غامرة عندما يطلب منه زبون صنع واحد منها ويقول له إنه لن يأخذ أجرة الصنعة ويكتفى بثمن الخشب والطلاء فيصبح هذا الزبون من أصدقائه الذين يحلو له الحديث معهم ومناقشتهم.

كان الأسطى أحمد النجار فيلسوفا، ولعل هذه الفلسفة وصنع رفوف الكتب هى التى لجعلت هؤلاء الغرباء الذين حدثتك عنهم يطالبون بجثته بعد موته ليدفنوها عندهم..

إن الله وحده هو الذى يعلم الحقيقة.

ولكن الصداقة التى كانت تربط بينه وبين الدكتور باول كراوس كان يربطها خيط واحد ظللت أجذبه سنوات عديدة عسى أن أصل إلى

حقيقة هذه الألفة التى كانت تجمع بين مستشرق كبير وبين نجار فى حارتنا حتى تحدد لها موعدا أسبوعيا للقاء..

وقبل أن ينتحر الدكتور كراوس كان كثير الحديث عما يدور فى ذهنه عن القرآن وكان يحاول أن يثبت بطرق مختلفة أنه شعْر وبذلك يكون محمد ﷺ شاعرًا. ويتحقق اتهام كفار قريش للنبى بطريقة علمية حديثة، ولا يصبح للنص القرآنى الخاص بنفى الشعر عن رسول الله ﷺ قيمة، ولكنه أسلوب من أساليب الجدل لا أكثر ولا أقل..

وقد سيطرت هذه الأفكار على عقل الدكتور كراوس فى الشهور الأخيرة قبل انتحاره وأعد صناديق البطاقات التى يسجل فيها عناصر بحثه الجنونى، وبدأ يقطع آيات القرآن على موازين الشعر العربى المعروفة والمجهولة على السواء وإن أعجزته الحيلة استرجع أوزان أو موسيقى الشعر العبرى أو السريانى فى محاولته. فينشد أشعار (نشيد الأناشيد) أو (شعر الأشعار) من التوراة باللغة العبرية ثم يرتل بعض آيات القرآن باللغة العربية، ويحاول أن يوجد صلة بينهما من ناحية الوزن الموسيقى.

وفى إحدى زياراتى له فى شقته بالزمالك استمر ليلة كاملة وهو يجرى هذه البروفة وهو يروح ويجىء وسط الغرفة ثم يسجل على الورق كلاما ويحاول إقناعى بأن القرآن شعر.

وفى سهرة ثانية من هذه السهرات، بذل الدكتور كراوس مجهودا غريبا فى محاولة إيجاد ميزان شعرى لسورة الرحمن، وظل يقفز فى الغرفة قفزات تشبه قفزات المايسترو المجنون الذى فقد سيطرته على

الأوركسترا، وظل يتحرك وحده على خشبة المسرح وفى يده عصاه التى تتحرك نحو المجهول.

وذات مرة قلت للدكتور كراوس إن الدكتور طه حسين قسم الكلام العربى إلى شعر ونثر وقرآن. لأن القرآن ليس شعرا وليس نثرا ولكنه كلام معجز تحدّى فصحاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله وأن ه ا التحدى أبدىّ وقائم إلى نهاية العالم.

وقلت له إن أقصر سورة فى القرآن مكونة من ثلاث آيات وهى سورة الكوثر.

﴿إنا أعطيناك الكوثر * فصلّ لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر﴾.

وسألته:

- هل هذه السورة بيت ونصف بيت من الشعر؟

فجلس إلى مكتبه وقلب صندوق بطاقاته. ثم عبث بخصلة شعره، التى كانت تتراقص فوق جبهته وأشعل سيجارة - وكان لا يكف عن التدخين - ثم نظر إلى طويلا نظرات هيستيرية ولزم الصمت وقال لى:

- فى المرة القادمة سأشرح لك كل شىء..

ولكن لم تكن هناك مرة قادمة فقد قرأت حكاية انتحاره فى جريدة الأهرام، وانطوت هذه الصفحة التى كانت من ظواهر الجنون كما قال لى الدكتور يوهان فوك فى إحدى زياراتى له فى ألمانيا. وقد حملت له مصحفا صغيرا من مصاحف الجيب ليطالع فيه عندما لاحظت أنه يجد مشقة بسبب السن والمرض عند ما يجلس إلى مكتبه أو يتحرك من مكانه. وكان أمر هذا الرجل العظيم من أعجب ما شاهدت فى حياتى، فقد كان يقرأ فى

أيامه الأخيرة كتاب إحياء علوم الدين للغزالى وكان شديد الاهتمام به حتى أنه جمع منه عددا من الطبعات المختلفة وقال لى إنه عندما اشتغل بالتدريس فى الهند أيام الاستعمار البريطانى قبل أن تنقسم شبه القارة الهندية إلى ثلاث دول منها دولتان إسلاميتان هما باكستان وبنجلاديش.. ثم دولة الهند. كان يقوم بتدريس الفلسفة الإسلامية فى جامعة عليكرة وفى امتحانات آخر العام أعدّ ورقة الامتحان وفيها سؤال عن رأى الإمام أبى حامد الغزالى فى أمر من أمور الفلسفة فكتب جميع الطلبة الإجابة بنص واحد لا خلاف بين كلماته. فظن أنه قد حدثت حادثة غش فى الامتحان. ولكنه عاد ففكر فى الأمر واستبعد أن يكون الطلاب قد غشّوا إلى هذه الدرجة من الدقة بلا خلاف فى حرف أو كلمة. وشغله الأمر ليلة كاملة ولم يستطع النوم ثم هداه الله إلى قراءة كتاب إحياء علوم الدين فى هذا الموضوع فوجد أن النص الذى فى الكتاب هو النص الذى فى ورقات الإجابة وأدرك أن طلابه يحفظون نصوصا من هذا الكتاب عن ظهر قلب. ومنذ ذلك التاريخ بدأ يجمع ما تصل إليه يده من طبعات كتاب إحياء علوم الدين.

وفى إحدى جلساتنا الممتعة وكنت أزور الدكتور يوهان فوك فى كل زيارة لى إلى ألمانيا وأسافر إليه فى مدينته بعد أن أتصل به تليفونيا. قالت لى زوجته الفاضلة إنه كلما اشتد مرضه وهو راقد فى سريره تجرى على لسانه كلمات واحدة هى الله ومحمد رسول الله وسألتنى عن معنى ذلك، فقال لى لا تخبرها بشىء لأننى كنت أنطق بالشهادتين. فقلت لها إن الدكتور فوك يحب الله ويحب محمدا فاقتنعت بإجابتى.

كان الدكتور يوهان فوك مسلما من أعماق قلبه وكان يشهد بأن لا إله

إلا الله وأن محمدا رسول الله عندما يرى اقتراب أجله. وقد عاش حتى بلغ ما فوق التسعين من عمره وهو صاحب (كتاب العربية) الشهير الذى تقوم نظريته الأساسية على أنه ما دام القرآن موجودا إلى آخر الزمان فإن اللغة العربية ستبقى موجودة إلى آخر الأزمان مهما حدث لها من أحداث أو دخلت فيها لهجات.

وعندما حدثته عما أراده الدكتور كراوس من محاولة مجنونة حول الشعر فى القرآن قال لى إنه يعرف كراوس وشطحاته الجنونية ولا عجب أن يقول هذا الكلام ويردد ما كان يقوله كفار قريش الذين لم يصلوا إلى شيء ثم أطرق قليلا وقال إنه يأسف لأن بعض العلماء أو من ينسبون أنفسهم للعلم يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذا الكلام وهم مثل الذين يطلقون السهام على الجبال فتتكسر السهام ولا تتكسر الجبال. وهذا القرآن لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا من خشية الله..

أما الأسطى أحمد النجار فقد كان قليل العلم وإن كان محبا للتعلم مغرمًا بالثقافة ولكن لم تتيسر له أسباب العلم فكان مشتت العقل كثير الجدل فيما يعلم ومالا يعلم، ولكنه لم يكن ملما أو مقتنعا بشيء يسيطر على عقله بل كان حائرا لا يعلم إلى أين يسير. وعندما كان يزورنى فى حلوان كنت أحس بأنه متأثر فى أفكاره بالدكتور كراوس وهى أفكار متراكمة ليس فيها وضوح برغم علمه الغزير فى اللغات والفلسفات. ولكن هذا العلم كان مثل أكداس من الكتب وضعت فوق بعضها بكل ما فيها من تناقضات وآراء مختلفة ومتضاربة. أى أنه كان رجلا عنده علم بلا رأى حتى فى علم اللغات كان يتحدث عن الكلمة فى أصولها اللغوية فى لغات مختلفة ولكنه لا يحدثك عما حدث لها فى مراحل انتقالها من لغة إلى أخرى

أو تطورها أو الأسباب الداعية لنطقها بطريقة معينة.

كان مجموعة قواميس ودوائر معارف متنقلة تربط بينها روابط شكلية ولا يستطيع صاحبها أن يصل إلى الموضوع ولا أقول جوهر الموضوع فهذا عمل أصعب.

وانعكست هذه الصورة على الأسطى أحمد ولكن بشكل خطير جدا لأنه كان ضئيل العلم قليل المعرفة، وبالرغم من ذلك كان يتحدث عن القرآن ويحاول معرفة أسراره بلا علم سابق حتى من ناحية فهمه أو قراءته قراءة صحيحة. وقلت له ذات مرة إنك يجب أن تعرف أولا بعض علوم القرآن حتى تدخل فى الكلام عن فلسفته، ولكنه لم يقتنع وظل يتخبط فى الدياجير شأن كثيرين من العامة أو من عامة العلماء الذين يتخبطون.

وقلت له مرة: إن صناعة النجارة التى تمارسها لها أدوات لا تستطيع بغيرها أن تصنع قطعة أثاث، فكيف تريد أن تفهم أسرار القرآن وفلسفته بلا أدوات؟

ولكنه كان معذورا فقد كان فى حيّنا شيخ أزهرى أسس جمعية دينية كبيرة وخطيرة وكانت تضم عشرات الألوف من الناس، واتخذ لها مقرا فى قصر من قصور الأمراء وكان يعقد فيه الاجتماعات ويلقى الدروس. وقد حضرت درسا منها وسمعته يفسر بعض آيات القرآن تفسيرا لم يقنعنى ولكنه نال استحسان سامعيه الذين كانوا يهللون ويكبرون، وعدت إلى دارى فراجعت عددا من تفاسير القرآن لأفهم فلم أجد تفسيرا واحدا منها يطابق كلام الشيخ، فقلت لنفسى لعله مجتهد وله رأى وعدت إليه

وحدثته فى الأمر فلمس أطراف لحيته بأصابعه وسوّى عمامته بيده وقال لى :

– إياك أن يجرى لسانك بهذا الكلام أمام أحد من الناس.

وفهمت لماذا وقع الأسطى أحمد بين براثن هؤلاء الغُرباء الذين جاءوا ليأخذوا جثته ويدفنوها عندهم. ولماذا سيطر الدكتور باول كراوس على أفكاره حتى سقط الرجل فى بئر الحيرة.

ولكننى مازلت أقول إن الله وحده هو الذى يعلم الحقيقة ويعلم ما فى القلوب ولا يستطيع أحد من البشر أن يحكم على أحد من البشر..

عبد التواب العسكرى
والحاج محمود الحاجب

كان عبد التواب العسكرى والحاج محمود الحاجب هما الشخصيتان الوحيدتان من أصحاب السلطة بين أبناء البلد فى الحى.. فقد كان باشوات عابدين وأفندية الدواوين من الأتراك والشراكسة؛ ولذلك ذاعت شهرة عبد التواب والحاج محمود عندما سكنَا فى الحى.

وعبدالتواب رجل صعيدى شهم كان يفتخر بصعيديته، أما الحاج محمود فلم يفصح عن هويته، ولكنهما كانا يتباهيان بالسلطة لأن أولهما كان يجلس على باب مكتب المدير العام لعموم إدارة الأمن العام، والثانى كان يجلس على باب مكتب وزير الحربية.

ومع أن عبد التواب العسكرى كان يرتدى الزىّ الرسمى لعسكرى البوليس وعلى ذراعه ثلاثة أشرطة تظهر قيمته بين العسكر بينما كان الحاج محمود يرتدى الملابس البلدية وعلى رأسه عمامة فإن السلطة الرسمية قد جمعت بينهما فأصبحا من أصحاب النفوذ فى الحكومة.

ولم يعلم أحد كيف استطاع الحاج محمود الوصول إلى باب وزير

الحربية الذى يقف أمامه جنود من الجيش ولكن هكذا شاءت الأقدار وأصبح الحاج هو الحاجب الشخصى للوزير، ولعل ذلك حدث بسبب الطرافة أو بسبب خفة دم الحاج وسذاجته التى تطلب فى مواقف الشدة أو لأى سبب شخصى آخر، وقد رأيت بعض رؤساء الوزراء أثناء عملى فى رياسة مجلس الوزراء لا يشربون فنجان القهوة إلا إذا قدمه لهم ساع معين فإذا تغير هذا الساعى أو الفراش بدا عليهم الغضب ولم يسعدوا بشرب القهوة. وكان منهم إسماعيل صدقى باشا ومحمود فهى النقراشي باشا الذى كان يحب شراب الخروب المثلج فى الصيف قبل شرب القهوة، وكان الفراش يعدّ شراب الخروب للباشا ويمازحه ويسأله إن كان أعجبه أم لا حتى يطمئن قلبه.

ولكن مصطفى النحاس باشا وحسين سرى باشا كانا لا يهتمان بهذه الأمور.

وكان الفراشون فى هذا العهد يرتدون البدل السوداء والقمصان البيضاء، وكان فى رياسة مجلس الوزراء تشريفاتى مثل تشريفاتية قصر عابدين، وكان لديوان رياسة مجلس الوزراء مراسم أيضا.

ولذلك فإننى عندما تذكرت الحاج محمود حاجب وزير الحربية وقد عرفته فى صباى الباكر بملابسه البلدية وعمامته عجبت لأمره ولكن هذه هى الحقيقة.

كان رجلا طويل القامة يخب فى قفطانه وجلبابه البلدى عندما يسير فى الطريق. وكان كثير الثرثرة لا يكاد يكف عن الكلام حتى إذا وقف عند

باب دكان أو قابل شخصا يعرفه فى الشارع فيحكى له حكاية قد تكون من نسج الخيال، ويظل فى ثرثرته حتى يدخل الزقاق الذى يسكن فيه ويصعد إلى شقته. ويبدو أنه كان يحب النوم ساعة الظهيرة وكانت بعض جاراته يتحدثن فى هذه الساعة من نوافذ بيوتهن فلا يلبث الحاج أن يفتح نافذته ويصيح بهن طالبا الصمت والسكوت لأنه قد جاء من الديوان متعبًا ويريد أن يستريح فكانت الأصوات تسكت، وكان هذا المشهد يتكرر كل يوم، ويبدو أن النساء كن يحببن مداعبة الحاج فكانت أصواتهن تعلو من النوافذ فى هذه الساعة. وكان الحاج يفتح نافذته ويصيح:

ياناس.. أنا لسه راجع من الديوان وعايز أستريح.

ثم يعود الصمت ويسدل الستار.

كان الرجل يشعر بأهميته فى الحىّ وأنه إذا أصدر أمرا فيجب أن يطاع حتى من النساء اللاتى كن يتحدثن من النوافذ، ولكنه لم يعلم حتى انتقل إلى رحمة الله أن النساء كن يتندرن به، ويحببن إثارته ليسمعن منه كلماته التى لم تتغير أو تتبدل طوال سنوات عديدة كان فيها صاحب سلطة فى الديوان وفى الزقاق.

أما عبد التواب العسكرى فقد كان له شأن آخر، فقد منحته ملابسه الرسمية حق السلطة فى شكلها الظاهر للناس، وقد حدثت فى عصره أحداث جسام لأنه كان العسكرى الخاص لمدير عام إدارة عموم الأمن العام، وهى وظيفة خطيرة لها هذا اللقب المرعب الذى ركبت ألفاظه وكلماته فى مهارة فائقة لإلقاء الرعب فى القلوب.

وكان عبدالتواب العسكرى يسكن فى شقة من ممتلكات الحاج الكبير أكبر ملاك الحى. ثم أراد أن يستأجر شقة أخرى كانت خالية فى ممتلكات

الحاج الكبير فثار التساؤل عن سبب تأجير شقة أخرى لعبد التواب العسكرى وماذا يصنع بها، ولماذا يستأجرها؟

وكان لابدّ أن يجيب عبدالتواب عن أسئلة كثيرة حتى يسمحوا له بإيجار الشقة، وأجابهم عبد التواب فى صلف وغرور بأنهم لا حق لهم فى السؤال ما دام يدفع لهم الأجرة، ولكنهم قالوا له إنه لو أتى لهم بمدير إدارة عموم الأمن العام بنفسه فلن يؤجروا له الشقة الخالية إذا لم يعرفوا السبب فى استئجارها ولماذا تستأجر وكيف تستخدم وما هو الغرض وما هى الغاية؟ فأحس عبد التواب بأن سلطته قد سقطت وانهارت فصعد إلى شقته وخلع ملابسه الرسمية ولبس الجلابية، وجلس إلى جوار النافذة يطل على الطريق. وقد أسند رأسه بيده.

وماذا تفعل ياعبد التواب؟ هل تقول لهم الحقيقة؟ هل تخفى الحقيقة؟

لقد كان مصير عبد التواب العسكرى ومصير مدير عام إدارة عموم الأمن العام أيضا معلقا على باب هذه الشقة الخالية التى يراها أمام عينيه من النافذة.

كانت قصة من أغرب القصص التى تفوق الخيال.

قالت أم فتحية لزوجها عبد التواب العسكرى:

– قل لهم إنك تستأجر هذه الشقة لفتحية حتى تتزوج.

فضحك العسكرى وقال لزوجته:

– أنا أستأجر شقة لفتحية حتى تتزوج وهى الآن فى السادسة من عمرها يا امرأه.. ماذا يقولون عنى؟ مجنون..

وقال الرجل الحقيقة.

كانت السيدة زوجة المدير مصابة بوسواس الميكروبات ورأت أن جميع أثاثات بيتها فيها ميكروب ولابدّ أن تغيرها، وحدثت معركة بينها وبين زوجها فرأى الرجل أن يريح دماغه ويوافقها وطلب من عبدالتواب استئجار شقة لوضع الأثاث فيها حتى يتصرف فيه وترك لزوجته اختيار الأثاث الجديد للبيت حتى ينهى المشكلة.

وقال عبدالتواب لأصحاب الشقة الخالية إنه سيوضع فيها الأثاث ولن يسكنها أحد حتى يقضى الله ما يشاء. كما قال لهم إن الهانم زوجة المدير حين تذهب إلى السوق لشراء احتياجات بيتها وتتخيل أن البائع قد لمس السكر بأصابعه وأصابه بالميكروب.. تأمر السائق بالذهاب إلى كوبرى قصر النيل لإلقاء كل ما اشترته فى النيل لأنه أصيب بالميكروب - وأنه أى عبد التواب العسكرى على اتفاق مع بعض المراكبية للاحتفاظ له بهذه البضائع حتى يعود ليأخذها منهم..

وكانت هذه السيدة مريضة بالوهم وتعتقد أن الميكروبات ستقضى على حياتها. وقد رأى زوجها الأمرين من تصرفاتها ولكنه كان يصبر عليها ويحاول إرضاءها، فأشرك معه عبد التواب العسكرى فى هذه المحاولات.

وعندما هدأت النفوس بدأ عبد التواب العسكرى يبيع الأثاث الفاخر قطعة بعد قطعة حتى أصبحت الشقة خالية وسلم المفتاح لأصحابها.. ولكنه ظل يتقاضى أجرها من الهانم صاحبة الأثاث حتى مات أو ماتت.. لا أحد يدرى.

محمود أجلاسيه

كان الناس المحترمون فى الحى يطلقون عليه اسم الأسطى محمود الجزمجى. أما الرعاع فكانوا يسمونه محمود أجلاسيه. وكان هو رجلا محترما هادئا لا يغضب وكان يرتدى الجلباب والمعطف والطربوش على الطريقة التى سلكها الحرفيون والأسطوات وبعض صغار التجار وغيرهم من أبناء البلد فى تلك الأيام، أما الأعيان والكبراء فقد كانت لهم الملابس الفاخرة الغالية من الجبب والقفاطين والعباءات.

وكانت الأحذية التى يصنعها الأسطى محمود لا يلبسها إلاّ الأعيان والكبراء والباشوات وبعض الأفندية الذين يعرفون قيمتها ولهم مزاج عال رفيع، وكان هو شخصيا لا يشتغل إلاّ بمزاجه، وقد تراه سحابة النهار جالسا على كرسى على باب الدكان ليمارس عمله فى صنع حذاء باسم واحد من السادة المعروفين أو من باشوات عابدين.

والأسطى محمود واحد من مشاهير الجزمجية فى القاهرة إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق بسبب وجود دكانه إلى جوار قصر عابدين، ولأن باشوات القصر كانوا من زبائنه ولذلك كان الرعاع من الحفاة يحقدون

عليه ويطلقون عليه اسم محمود أجلاسيه لأنه كان يتقن صناعة الأحذية من الجلد الرقيق الفاخر الذى كان يسمى جلد الأجلاسيه ويبدو أن هذه الكلمة ترتبط بكلمة لاتينية تعنى الزجاج أى أنه جلد فى رقة الزجاج ولمعانه.

وفى هذا العصر ومابعده كان الحفاء منتشرا بشكل وبائى غريب، وكان الحفاة يمثلون الغالبية العظمى من الشعب المصرى لسبب مجهول مازلت لا أعلم أسبابه، لأنه لم يكن سببا اقتصاديا على كل حال وإن كان ظاهرة توحى بذلك عند قصار النظر الذين يفسرون الظواهر بالأسباب الاقتصادية وحدها ويهملون الأسباب النفسية والاجتماعية وغيرها من أسباب.

وذات يوم ركبت الترام مع أحد أصدقائى فى الدرجة الأولى التى كان أجرها قرشا واحدا. وجلس معنا أحد الحفاة، فدعانا نزق الشباب إلى تأمل هذه الظاهرة وإطالة النظر إلى قدميه الحافيتين بقصد أو غير قصد. وعندما جاء كمسارى الترام ليطلب الأجرة أخرج هذا الرجل الحافى حافظة نقوده واستل منها ورقة من ذات مائة الجنيه وأعطاها للكمسارى ليقطع له تذكرة بقرش واحد، فقال له الكمسارى إنه لا يملك أن يعطيه باقى مائة جنيه من أجل تذكرة بقرش، فقال له الرجل الحافى فى سخرية:

اسأل الأفندية لعل معهم فكة هذه الورقة.

ثم أعادها إلى حافظة نقوده وأخرج ورقة أخرى من ذات الخمسين..

وورقة ذات عشرة جنيهات وخمسة جنيهات، وهو يكرر سؤاله. وأخيرا دفع للكمسارى القرش ثمن التذكرة وهب يقول:

- يبدو أن الأفندية ليست عندهم فكة.

وفى هذا اليوم أيقنت أن الحفاء هواية لها أسباب كثيرة وليس السبب الاقتصادى هو الوحيد فى هذا الموضوع ولكنه السبب الغالب..

وكان بعض الأعيان من أهل الأرياف ومنهم باشوات يملكون آلاف الفدادين يضنّون بنعالهم أن تمس الأرض، ويضعونها تحت آباطهم ويمشون حفاة - وقد اشتهر واحد منهم بذلك، وكان له أبناء وحفدة يلبسون أعظم ما أنتجت لندن وباريس من أحذية، كما كانت بعض نساء الأعيان فى الأرياف يفعلن ذلك ويمشين حفاة وقد وضعن البلغ السوداء تحت آباطهن، ثم يضعنها فى أقدامهن حين يبلغن المكان الذى يقصدن إليه.

كان الحفاء داء من أدواء المجتمع حتى أنه أُعدّ مشروع للقضاء على الحفاء وصادق عليه البرلمان وسمى فى ذلك الوقت مشروع مقاومة الحفاء مثل القضاء على البلهارسيا والإنكلستوما، أو القضاء على الفقر والمرض والجهل من المشروعات الشهيرة فى تاريخنا المعاصر..

ولكن محمود الجزمجى كان ظاهرة فريدة فى حي عابدين مع أن كثيرين من الأرمن كانوا يقومون بهذه المهمة، كما كانت المتاجر الكبرى تبيع الأحذية المستوردة من إنجلترا وفرنسا والنمسا وألمانيا، وكان أشهرها محلات (سلامندر) النمساوية الألمانية ومحلات (روبرت هيوز) الإنجليزية ومحلات (راءول) الفرنسية. ولكن الأسطى محمود تغلب عليهم جميعًا

بسبب قدرته الخارقة على إتقان الصنعة مع ضبط المقاس حتى أصبح باشوات عابدين من زبائنه..

وكانت السيدات يلبسن الأحذية المستوردة من الخارج وخاصة من فرنسا، وكانت تباع فى المحلات الكبرى فى القاهرة، وكان الأزواج أو الآباء يقومون بشرائها حتى لا يلمس الباعة أقدام نسائهم، وكانوا يشترون مقاسات مختلفة منها، وما يصلح للست منها أخذته وما لا يصلح تعطيه لأقاربها، وقد قرأت قصة غرامية قصيرة عن بائع أحذية فى شارع الموسكى وسيدة أرادت شراء حذاء من الدكان الذى يعمل به، وكان كامل أفندى بطل هذه القصة التى قرأتها وأنا صبى من الشخصيات التى اشتهرت فى تلك الأيام بعد نشر هذه القصة فى كتاب يضم عددا من القصص القصيرة الساذجة لمؤلف مجهول نسيت اسمه وضاعت قصصه فى زحام الحياة، ولكننى مازلت أذكر اسم كامل أفندى بائع الأحذية الذى وقع فى غرام السيدة عندما لمس قدمها وهو يقيس لها الحذاء..

وكانت الحاجة إلى أحذية النساء فى تلك الأيام قليلة، لأنهن لم يكن لهن الحق فى الخروج من بيوتهن إلاّ بشروط قاسية ولأسباب ملحّة.

أما الشباشب وهى نعال النساء داخل بيوتهن، فقد كانت لها أهمية كبيرة، وكان فى حيّنا رجل شباشبى شهير، وهو صانع الشباشب للنساء وقد نسيت اسمه، ولكنه كان ماهرًا فى هذه الصناعة، وكان يصنع الشباشب لنساء الطبقة المتميزة فى الحى من الجلد اللامع الذى نطلق عليه اسم (الفرنيه) من ألوان مختلفة كالأسود والبرتقالى والفستقى والأحمر والنبيتى وغيرها ويطبع على الشبشب وردة تناسب لونه أو توافق مزاج

السيدة حسب رغبتها..

وكان هذا الشباشبى ينازع الأسطى محمود الجزمجى فى شهرته لأنهما كانا يتعاملان مع الطبقة القادرة فى الحى، وكانا يتعاملان مع الباشوات والأعيان على السواء..

جميلة بياعة المشمش

كانت جميلة لا تظهر بعربتها إلا فى المساء.. ولم تكن رحلة العربة طويلة فهى تسير بها مسافة لا تزيد عن خمسين مترًا لتقف على ناصية الشارع أو الحارة المأهولة بالسكان..

ولم يعرف أحد من أين تأتى ولا إلى أين تذهب. وكل ما عرفناه أنها لا تظهر فى شارعنا إلاّ فى موسم ظهور المشمش وهو موسم قصير أيامه معدودات. وكانت تملأ عربة اليد بحبات المشمش التى ترصها فى شكل هرمى جميل. وتغطيها بورق السلوفان الوردى. ثم تضع عند أول عربة اليد بالقرب من يدها الميزان والكلوب المضاء، فكان المشمش يأخذ لون الذهب..

وكانت الشوارع والحارات تضاء فى تلك الأيام بفوانيس غاز الاستصباح وهذه الفوانيس ضوءها ضئيل، وكان ضوء الكلوب الذى تضعه جميلة على العربة مبهرًا يسكب نوره على المشمش المغطى بورق السلوفان الوردى وعلى وجه جميلة فنرى صورة من صور الإبداع فيها ذوق رفيع. فكان هذا المشهد الليلى فى الصيف يجذب الأنظار.

ولم تكن جميلة على قدر من الجمال. ولكنها كانت تتميز بالدلال، وكانت بنت بلد ترتدى جلابية لونها فاقع دائمًا وتعصب رأسها بمنديل مزخرف

الحواشى وتلفها بطرحة ينسجم لونها مع لون المنديل والجلابية وتلقى بأطرافها على صدرها وظهرها ، كما كانت تظهر قرطها الذهبى الذى يشبه القوس وقد تدلت منه حبات ذهبية فى حجم الحمص لها رنين مع كل حركة أو لفتة من هذه السيدة السمراء النحيلة باسمة الثغر نفاذة العينين فى شراهة النمرة وكانت تضع فى معصميها غوايش ذهبية تحدث أيضًا رنين الذهب كلما وزنت لزبون قرطاسا من هذا المشمش الذهبى. الذى ينطفئ لونه بعد أن يؤخذ من العربة ويوضع فى القرطاس..

لم تكن هذه السيدة جميلة ولكنها كانت مثيرة، وكان صوتها هو الذى يجذب أهل الحى جميعًا من الشيوخ والشباب للشراء منها.. فكانت بين حين وحين تشق حجاب الصمت وتردد فى صوت منغم..

– اللى الهوا هزه يا حموى يا ناعم..

ثم يحلو لها بعد ذلك أن تنغم على أنغام مختلفات وبطرق متعددة. وقد يأخذها الطرب.. ويستخفها الهوى. وتظل تقول:

– اللى الهوا هزه.. يا ناعم.. يانواعم.. ياغريّبة.

لقد منحها الله خفة الدم ورخامة الصوت والتمايل فى الحركة والأداء. وكان الزبائن ينتظرون حتى تنتهى جميلة من أدائها الغنائى المقترن بالحركة ثم يطلبون منها مايشاءون من المشمش فلا تلبث العربة أن تفرغ بعد ساعة أو أكثر قليلاً ثم يأتى صبى الكلوباتى ليأخذ الكلوب بعد إطفائه ويجرى بدراجته نحو دكانه.. وتسحب جميلة عربتها وتختفى داخل الحارات.

كانت نداءات الباعة والبائعات فى الجيل الماضى فنًا عظيمًا من فنون

الشعب لا من حيث الكلمات وحدها ولكن من حيث الأداء. وقد سمعت أن سيد درويش استوحى لحن (زغلول يابلح) من طريقة أداء بائع بلح فى حيّنا حى عابدين.. وأنه ذهب إلى حارة السقايين عندنا ليسمع من السقايين طريقة نداءاتهم حين يدخلون البيوت وهم يحملون قرب الماء ويرددون فى نغمة مميزة كلمة:

.. يعوض الله.. يهون الله

وكان بديع خيرى من سكان حيّ عابدين بالقرب من حارة السقايين.. وهو كاتب الزجل الذى لحنه وغناه سيد درويش ومطلعه:

يهـون اللّـه يعـوض اللّه
ع السقايين دول شقيانين متعفرتين م الكوبّانيّة

أما حكاية البلح الزغلول فقد كانت الرقابة قد حرمت اسم سعد زغلول بعد اعتقاله وسمع سيد درويش وصديقه بديع خيرى بائع بلح يردد فى صوت معبّر:

يـابلح حيّـانى زغلـول يـابلح

فكان اللحن الشهير:

يـابلح زغلـول ياحليـوه يـابلح
الله أكـبر عليـك ياسكـر
يـازرع بـلدى عليـك يـاوعدى
يـابخت سعـدى زغلـول يـابلح

وكانت لطوائف الباعة المتجولين نداءات منغمة تميزهم وقد ذكر الجبرتى أنه عندما احتكر محمد على زراعة الملوخية والبامية فى مزارعه

بشبرا. كان نداء الباعة عليها فى القاهرة هو:

– ملوخية الباشا.. بامية الباشا

وتمتاز نداءات الباعة عادة بالاختصار حتى يسهل ترديدها وتنغيمها لأن البائع أو البائعة يكررها طوال طوافه فى الشوارع والحارات وقد اشتهر عن نداءات باعة الخضراوات قولهم:

– خضرة ياملوخية خضرة.

لوز يابامية.

مجنونة ياقوطه.

أما نداءات باعة الفاكهة فكان من أشهرها..

– يافاوى يابطيخ.. ع السكين يابطيخ.. حمار وحلاوة. ثم ظهرت أصناف أخرى من البطيخ مثل البطيخ الحجازى الأصفر والبطيخ البيضاوى الذى يطلقون عليه اسم (النمس) وأخيرا بطيخ الشليان بلاك..

وكان النداء المشهور على العنب هو:

– فيّومى ياعنب..

ثم ظهرت أيضا أصناف أخرى من العنب منها العنب الرومى والبناتى وغيرها..

وكانت عيدان قصب السكر منتشرة فى القاهرة. ثم زالت وحل محلها دكاكين تقدم عصير القصب، وكان ينادى على القصب بقولهم:

– خد الجميل ياقصب..

وعرفت فاكهة المانجو فى مصر بعد الثورة العرابية. وقد أدخلها الزعيم أحمد عرابى عندما كان فى منفاه بجزيرة سيلان وأعجب بالمانجو فأرسل إلى صديقه المنشاوى باشا.. كبير أثرياء طنطا ألف شجرة من أشجار المانجو فزرعها فى مزارعه.. ثم زرع أحمد تيمور باشا أيضا أشجار المانجو فى مزارعه وزرع (درانيت باشا) أحد الفرنسيين من حاشية الخديوى عباس حلمى المانجو فى مزارعه بالقرب من الإسكندرية وسماها (الفونسو) ولكن فاكهة المانجو لم تجد لها نداء منغما ملحنا على ألسنة الباعة..

ومن الطرائف التاريخية أنه عندما تولى السلطان برقوق حكم مصر حرم على الباعة النداء على فاكهة البرقوق بهذا الاسم فكانوا يطلقون على البرقوق اسم (الأشقر) حتى انتهى عصر السلطان برقوق، وهذا شبيه بما حدث فى عهد الحاكم بأمر الله عندما حرم على المصريين أكل الملوخيه لأن خادمه الخاص كان اسمه (ملوخية) مازال فى القاهرة حتى اليوم شارع اسمه درب الملوخية.

وكان باعة الصابون من الشوام يطوفون وعلى كتف الواحد منهم خُرج به قطع الصابون وينادى:

- نابلسى ياصابون.. الصابون النابلسى..

وكانت مدينة نابلس فى فلسطين من أشهر المدن التى تصنع هذا النوع من الصابون المصنوع من زيت الزيتون وكان منتشرا ومشهورا فى القاهرة، وكان فى حى الموسكى وكالة اسمها (وكالة الصابون) وكان القادرون ينتقون منه أصنافا فاخرة معروفة الاسم لاستخدامها فى الحمام..

ولكن بائع الصابون المتجول من أهل الشام كانت له نغمة خاصة فى النداء على بضاعته.

وفى موسم السردين كان يظهر فى الحى طائفة من أهل رشيد يبيعون هذا السردين وكان الواحد منهم يحمل على كتفه صفيحة معلقة بشريط من القماش فوق الكتف والصفيحة التى وضع فيها السردين خلف ظهره وقد يضع فيها غالبا (أم الخلول) وهى صدفة صغيرة من أصداف البحر بداخلها شىء هلامى مالح.. وكان لهؤلاء الباعة نداء خاص، ولهم أيضا زى خاص هو السروال والصدار والطاقية الإسكندرانى. وكانوا ينادون فى لهجة إسكندرانية لطيفة منغمة..

- السردين الرشيدى.. رشيدى يا سردين..

وكان هؤلاء الرشايدة يبيعون السردين وأم الخلول بالعدد لا بالميزان، ومن أشهر الباعة الموسميين باعة العصافير التى كانوا يطلقون عليها اسم (عصافير النيل) ويبيعونها بالدسته: أى (اثنى عشر عصفورا) مذبوحة ومنظفة ومربوطة الأرجل بخيط، وكان لهم نداء موحد له نغمة واحدة من كلمة واحدة هى:

- فجافيجو.. الفجافيجو

ومنهم أيضا باعة (رعرع أيوب) الذين كانوا يظهرون فى أيام شم النسيم من كل عام ويبيعون نباتا أخضر اللون عريض الأوراق. وينادون عليه فى لهجة سريعة خاطفة عميقة قائلين..

- رعرع أيوب..

وكان الناس يشترون هذا النبات ويغلونه فى الماء ثم تسكب ربات

البيوت هذا الماء الذي غلى فيه رعرع أيوب على سلالم البيت ليجلب الخير والسعادة لأهل البيت، ولا أدرى ما الذى جمع بين .(رع) وبين (أيوب) أو بين الإله الذى عبده المصريون القدماء وبين أيوب الذى ابتلاه ربه فصبر على البلاء، ولا أعتقد أن رعرع معناها ازدهر. لأن أيوب عاش فى بلاء وصبر عليه ولم أقرأ فيما قرأت شيئا عن هذه العقيدة التى كانت سائدة فى الجيل الماضى، ولكننى عرفت نبات (رعرع أيوب) وشاهدت طقوسه السنوية العجيبة وكان من العادة أن يؤكل البيض المسلوق يوم السبت السابق لشم النسيم وكانوا يسمونه سبت النور.. وكانت النساء والبنات يتكحلن فى هذا اليوم بصفة خاصة بنوع من الكحل حتى تظل عيونهن مجلية طول السنة..

وفى يوم الأحد السابق ليوم الاثنين وهو يوم شم النسيم وكانوا يسمونه أحد السعف.. كان الصبيان والبنات من الأقباط يجدلون سعف النخيل الأبيض فى رسومات وزخرفات رائعة ويذهبون إلى الكنيسة حاملين هذا السعف، وكان الأقباط والمسلمون يشتركون فى جدْل سنابل القمح بأشكال زخرفية جميلة ويضعونها على أبوابهم، وفى ليلة شم النسيم كانت الأمهات مسلمين وأقباطا يضعن تحت وسائد أبنائهن وبناتهن بصلة صغيرة حتى إذا ما جاءت الشامة فى الليل لتشم الطفلة أو الطفل فإنها تشم رائحة هذه البصلة التى تعيدها إلى مكانها فلا تؤذى الطفل أو الطفلة وهكذا تبتعد الروح الشريرة أى الشامة..

وكان من الباعة الموسميين أيضا بائع البخور.. فى يوم عاشوراء وكان يحمل على رأسه صينية مستديرة من الخشب عليها أصناف من البخور متعددة الأشكال والألوان وكان لهؤلاء الباعة.. نداء موحد أيضا هو:

- عاشوره المباركه

وزبائن هؤلاء الباعة من أغنياء أبناء البلد الذين يعتقدون أن الناس تحسدهم على النعمة، إما الفقراء فلم يكونوا ليتعاملوا معهم لأنهم لا يملكون شيئا يخافون عليه، وهؤلاء المبخراتية فى يوم عاشوراء وهو يوم (مقتل الحسين) كانت لهم إجراءات وطقوس فكان الواحد منهم يضع الطبلية أى الصينية الخشبية التى تحوى البخور فى فناء البيت ثم يبدأ فى تركيب البخور الهندى والجاوى بطريقة معينة وكأنه كميائى أو صيدلى ثم يطلب من الخدم المبخرة التى وضع فيها الفحم المشتعل، وبعد ذلك يمارس طقوسه فى عملية التبخير للبيت كله حيث يمشى معه أهل البيت من مكان إلى مكان فتتزعم ربة البيت توجيهه إلى الأماكن التى تعتقد أن العين قد أصابتها أو قد تصيبها.

وكان هذا المبخراتى يحفظ ألفاظًا وجملا معينة يرددها أثناء عمله بطريقة توحى بأنه يطرد الأرواح الشريرة والعين الحاسدة من البيت..

وكان مبخراتى عاشوراء يرتدى جلبابًا أبيض.. وله حزام أخضر ويضع على رأسه طاقية خضراء، وكان هذا اللون الأخضر قد اتخذ منذ أجيال مضت أزياء السادة الأشراف الذين ينتسبون إلى النبى ﷺ: وكان مشايخ الطرق الصوفية يلبسون عمائم خضراء ولعل بعضهم مازالوا يفعلون.

وعلى كل حال كان المبخراتى يبدأ بتبخير السلالم ليصعد إلى الطابق الأول من البيت ومابعده من طوابق وكان الناس فى ذلك الزمان يسكنون البيت من بابه فى تعبير أهل القاهرة وعندما يتصاعد دخان البخور. يصيح هذا الرجل.

بخّروا السلالم من عين أم سالم..

ثم يستمر فى عمله وهو يسير وراء أهل البيت من النساء والبنات والصبيان والخدم ويبخر كل شىء وهو يقول:

- بخّروا السرير ليطق ويطير..
- بخّروا المرتبة من عين مسعده..
- بخروا اللحاف من عين أم خلاّف..
- بخّروا المخدّه حاتنام وتهدى..

وقد يرى فى طريقه قفص كتاكيت تتسلى ربة البيت بتربيتها فيصيح فى انجذابه.

- بخّروا الكتكوت ليطق ويموت..

أما فى المطبخ فلا يبخر شىء سوى المغرفة وهو يقول وقد لمعت عيناه:

- بخّروا المغرفة من عين أم مصطفى.. وكان مبخراتى عاشوراء لا يوجه نداء إلاّ إلى النساء فقط ولا يذكر اسم رجل ولعله كان بذكائه الفطرى يريد إرضاء نساء البيت الذى يقوم بتبخيره؛ لأنهن كن يعتقدن أن العين الحسود هى عين امرأة لا رجل، وإذا وجد رجل حاسد فإنه لا يستطيع الوصول إلى الأشياء.. التى تصل إليها النساء فى غرف النوم أو المطبخ أو غيرها من دخائل البيت فلا تصل عينه إلى حسدها..

وكان من مشاهير أصحاب النداءات المتميزة فى الحى الحاج مصطفى التركى بائع الدنْدرمه.. وكان هذا الرجل لا يظهر إلاّ فى الصيف بعربته الصغيرة البيضاء التى يضع بداخلها آنية الدنُدْرمه وحولها الثلج وكان يغطيها بالشاش الأبيض كما كان يلبس جلبابا أبيض وطاقية بيضاء

ومريلة بيضاء مربوطة خلف ظهره بشريط وكان رجلا وسيماً جميل الصورة له لحية شقراء وقد حدد موعد خروجه لبيع الدندرمه فى الساعة الثالثة بعد الظهر وكان ينهى جولته فى الشوارع حول قصر عابدين قبل غروب الشمس حيث تكون آوانيه الثلاث قد فرغت وكانت تحتوى على دندرمة اللبن الصافى ودندرمة الشيكولاته ودندرمة الفاكهة وغالبًا ما تكون المشمش والفراولة والليمون، وكان يضعها فى قراطيس من البسكويت الهش اللذيذ ويعبئها بملاعق من الفضة أعدت لهذا الغرض..

كان الحاج مصطفى قليل المعرفة باللغة العربية ولا يكاد يعرف منها إلاّ أصناف الدندرمه التى يبيعها من اللبن آو الشيكولاته أو المشمش والفراولة وغيرها كما يعرف ثمنها وكان خمسة مليمات أو قرش تعريفه للقرطاس الواحد، وكان فى حركته الهادئة البطيئة فى شوارع الحى.. ينادى على بضاعته فى لكنة تركية قائلاً:

- دندرمة كايماك.. كايماك دندرمة..

ومن أشهر البائعين الذين جلجلت أصواتهم فى ترنم يشبه المواويل بائع طعمية من أبناء البلد كان نادرة من النوادر، وكان هذا الرجل لا يظهر إلاّ بعد غروب الشمس ثم يختفى بعد العشاء وكان أنيقًا نظيفًا فى زيّه البلدى، فهو يرتدى جلبابًا بلديًا واسع الأكمام وطاقية أنيقة ويضع على كتفه حاملا خشبيا وفوق رأسه صينية من النحاس الأصفر فى أعلاها صندوق زجاجى تمسكه قوائم من النحاس الأصفر أيضا وله باب يفتح ويغلق، وكان يضع الطعمية فى الصينية ومعها قراطيس صغيرة بها ملح وتوابل وأوراق بيضاء يصنع منها قراطيس توضع فيها أقراص الطعمية وكان نداؤه على بضاعته فى صوت غناء رخيم هو:

- الفول كله فول.. بس الرك ع الصنعة.
- خد مني فلافل كل منها واتهني.

كان هذا الرجل يتحدّى كبار الطعمجية فى حيّ عابدين الذين يقف على أبواب دكاكينهم الباشوات ليشتروا منهم الطعمية التى كانت الشيء الممتع فى السهرات والليالى الملاح، وأصبح الباسوات فى القصور وأبناء البلد أيضا ينتظرون هذا الرجل الذى ينادى كل ليلة:

- الفول كله فول.. بس الرك ع الصنعة.

وكانت الطعمية التى يسترونها منه.. زينة الموائد فى ليالى الأنس والطرب والصفاء..

وعلى ذكر هذه الأطعمة الشعبية.. مازلت أتذكر رجلا من أبناء الحى كان يعمل فى مقهى شهير بجوار مبنى جريدة الأهرام القديم حيث كان يجلس باشوات مصر وكانت تشكل الوزارات وتفض الاشتباكات وتنتهى الخلافات..

كان هذا الرجل وسيما جميل الصورة دمث الأخلاق حلو الكلام وقد اختار لنفسه ز. بدب خاصا هو القفطان الأبيض والحزام الأحمر والطربوش.. وكان من عادته أن يقدم للباشوات بعد منتصف الليل أقراص الطعمية والباذنجان الأسود المخلل بالثوم والخل والتوابل.. وكانوا يسعدون سعادة غامرة بقرص طعمية وقطعة من هذا الباذنجان أبو خل الذى قيل إنه كان سبب النبوغ الموسيقى للموسيقار الشهير (داود حسنى) عندما كان يتبع وهو صبى رجلا من الباعة يجر عربة صغيرة فى حى الحسين رضى الله عنه ويبيع هذا الصنف من المخللات.

وكان هذا الرجل بائع الباذنجان المخلل يردد فى صوت رخيم ونغم عظيم نداءه على سلعته ويقول:

- أبو خـل.. البدنجان أبو خـل..

كل هذا الحديث جرّتنا إليه جميلة بائعة المشمش ذات العينين القاتلتين والوَجه الأسير..

جميلة ذات الدلال.. وليست ذات الجمال..

شارب المعلم على فضل الله

كنت شديد الإعجاب بالمعلم على فضل الله العربجى الكارو الشهير ولعله كان شيخ العربجية أو زعيم العربجية فى عصره وقد انتهى هذا العصر أو أوشك على الانتهاء، وأصبحت سيارات النقل الخفيف والمتوسط والثقيل تحل مكان عربات الكارو ذات الأربع عجلات أو ذات العجلتين.

وقد لفت نظرى فى صباى الباكر شارب المعلم على فضل الله المنكوش فقد كان شاربًا غريبًا بين شوارب العصر الماضى التى كانت مدببة مهذبة مرفوعة إلى أعلى أو إلى أسفل، وكان أشهرها شارب الملك فؤاد المدبب المرفوع إلى أعلى، وقد قلده فى ذلك كثيرون من الباشوات والعياق وغير الباشوات. وكان المثقفون يهذبون شواربهم بطريقة مهذبة فلا تطول ولا تقصر، وقد قلد بعضهم شارلى شابلن فى شاربه القصير المعروف فى السينما.

كان العصر هو عصر موضة الشوارب، حتى أن أحد الحلاقين فى شارع عبد العزيز تخصص فى تسوية الشوارب على طريقة الملك فؤاد وكانوا يسمونها طريقة (كوزماتيك) ولها وسائل ومواد تجميلية خاصة أيضًا فى تدبيب الشوارب ورفعها إلى أعلى، وقد رأيت رئيس موسيقى الحرس

الملكى وله شارب مدبب بهذه الطريقة تشبها بالملك فؤاد الذى كان كثيرون يتشبهون به فى صنع شواربهم.

وقصة الشوارب من أمتع القصص فى تاريخ مصر وفى تاريخ العالم أيضًا، وقد حاول نابليون بونابرت القضاء على أسطورة الشوارب واللحى فحلق شعر لحيته وشاربه وأصبح وجهه ناعمًا مثل وجه عذراء بعد أن كان كل الملوك والأباطرة لهم لحى وشوارب يتميزون بها ويحبون إظهارها للناس، ولكن نابليون لم ينجح فى فكرته وطاوعه بعض قادته مثل الجنرال كليبر، ولم يطاوعه آخرون مثل الجنرال عبدالله جاك منو، فقد كان الأول بلا لحية ولا شارب وكان الثانى بشارب بلا لحية، ويبدو أن موضة حلق الذقون انتشرت فى مصر بعد الحملة الفرنسية، وأصبح كثيرون من المصريين يحلقون لحاهم ويسوون شواربهم. وقد كان الشارب من علامات الرجولة، وكان الفتى عندما ينمو شعر شاربه يدخل فى مرحلة الرجولة لأن شعر الشارب ينبت قبل شعر اللحية، وللشعراء أقوال كثيرة فى موضوع الغلام الذى طرّ شاربه أى نبت شعره.

وكان شيخ العرب فى قليوب من أشدّ المصريين قوة وسطوة، وقد حارب المماليك وحاول أن يدخل القاهرة على رأس قوة من رجاله، ولكنه لم يستطع ويبدو أن رجاله الأشداء كانوا يتميزون بشواربهم أو بطريقة تهذيبها فأطلقوا عليه لقب (أبو الشوارب) ثم تطور هذا اللقب وخففه الناس وأصبحوا يطلقون عليه اسم (الشواربى) وله شارع مشهور فى قلب القاهرة.

وعندما انتشرت موضة حلق اللحية وترك الشارب وتهذيبه وتسويته فى مصر، أصدر (عباس باشا الأول) فرمانا يلزم الموظفين فى الحكومة بترك

لحاهم. وكان جزاء الذى يحلق ذقنه الفصل من الخدمة.

وكان فى القاهرة فى الجيل الماضى أشجار تنبت أزهارا صفراء لها شعر طويل، وقد أطلقوا عليها اسم (ذقن الباشا) وكان الصبيان يعبثون بهذه الأزهار وينزعون منها الشعر تندرا بذقون الباشوات التى كانت فى الغالب شقراء اللون مثل شعر زهرة ذقن الباشا، وكان أحد هؤلاء الباشوات فى حى عابدين من جيراننا له شارب أبيض لامع بعد أن كبر وشاب، فكان العامية يطلقون عليه اسم أبو شنب فضة.

بل كان الناس يتباهون بالشوارب العظيمة التى تقف عليها الصقور، ومن أمثالهم: شنب يقف عليه الصقر وهو من دلالات قوة الرجولة، وكان المغنون يرددون هذا القول ومنهم الشيخ زكريا أحمد الذى تغنى بشنب أبى سعدة الذى يقف عليه صقران.

ومن العقوبات التى كانت سائدة فى عصر المماليك أن السلطان كان يصدر حكما قاسيا على أحد المذنبين فيحلق شاربه أو نصف شاربه ويأمر بإركابه حمارا بالمقلوب ويطوفون به فى القاهرة حتى يشاهده الناس على هذه الصورة المزرية، وقد يصدر الحكم وفيه زيادة فى الاحتقار فيوضع فوق عمامة المذنب أمعاء خروف أو عجل مذبوح أو يوضع سقط كامل للذبيحة وهو ما يحويه جوف الخروف المذبوح من أمعاء وكبد وطحال وغيرها، ولكن حلق الشارب كله أو نصفه كان يلجئ المذنب إلى الاختفاء وعدم الظهور أمام الناس حتى ينبت الشعر مرة أخرى..

وقد ذكرنى شارب المعلم على فضل الله بهذه الحكايات فقد كان هذا الشارب أهم سمات شخصيته، وكان شاربا منقوشا عظيما جليلا غزير الشعر يكاد يملأ صفحة وجهه ويسيطر على كل ملامحه التى كانت تتميز

بلا شىء، ومن الصعب أن تجد وجها بلا ملامح فى العينين أو الأنف أو الأذنين، ولكن المعلم على كان صاحب الوجه الذى تختفى كل ملامحه بسبب شاربه الممتد فوق شفته العليا ويلمس شفته السفلى ويبدد معالم خديه وشكل أنفه، فإذا تأملته لا ترى ماذا تخفى عيناه من نظرات قد تعبر عن مشاعره، ولا أخفى عليك أننى شاهدت فى حياتى آلاف الصور الزيتية أو الفوتوغرافية ولقيت عشرات الألوف من البشر فكانت عينى تقع على عيونهم لأول وهلة، ولكننى فى حالة المعلم على فضل الله لم تقع عينى إلاّ على شاربه دائما، لا بسبب انطفاء عينيه، ولكن بسبب هذا الشارب العجيب المذهل.

وكان من عادته أيضا أن يحلق شعر رأسه بطريقة كانت معروفة عند أولاد البلد فى الجيل الماضى وهى التى كانوا يطلقون عليها اسم: شقة البطيخة وقد سميت بهذا الاسم لأن باعة البطيخ لهم طريقة فى شق البطيخة بالسكين، بحيث يكون شقها فى خطوط متوازية تخرج من قلبها مربعا أو مستطيلا حتى يرى الزبون إن كانت حمراء أو بيضاء أو وردية لم تنضج فلا هى بالحمراء ولا بالقرعاء، ثم يتذوقها الزبون ليتأكد من أنها (حمار وحلاوة) وهو القول المأثور عن البطيخ الجيد. وقد كانت إحدى مسرحيات على الكسار تحمل اسم (حمار وحلاوة).

وكان حلاق هذه الطائفة من الناس يجلسهم على الرصيف تحت شجرة ويمارس عمله وكنت أرى آخر هؤلاء الحلاقين فى السنوات الأخيرة تحت الأشجار الباسقة عند كوبرى الملك الصالح فى منطقة فم الخليج، ولعله مازال جالسا هناك.

أما حلاقة الرأس بطريقة شقة البطيخ، فكانت تتم بإزالة شعر الرأس

من أعلاها بالموس حتى يصبح المربع أو المستطيل مثل شقة البطيخ. ثم يهذب الحلاق بقية شعر الرأس بآلة الحلاقة والمقص والموس، وقد سمعت أن هذه الطريقة تحدث تهوية فى الدماغ خاصة فى فصل الصيف، ولكن المعلم على فضل الله كان من هواتها فى الصيف والشتاء على السواء.

وقد كان المعلم يتزعم طوائف العربجية الكارو فى حى عابدين، وكانوا يطيعون أمره ولا يخرجون عن طاعته، وكانت لهم اختصاصات فمنهم من ينقل البضائع ومنهم من ينقل الأثاث، وفيهم أيضا متخصصون فى نقل الخزائن الحديدية وهى عملية شاقة تحتاج إلى خبرة عظيمة. وقد حدثنى المعلم أن جده الأكبر رحمة الله عليه قام بنقل خزائن الحديد المليئة بالجنيهات الذهبية من مبنى القنصلية الإنجليزية بشارع جامع شركس أمام الكنيسة التى مازالت قائمة هناك حتى اليوم إلى قصر عابدين فى حراسة ضباط وجنود الحرس الخديوى أيام الخديوى إسماعيل. وقد شاهد المعلم فضل الله الكبير الخديوى نفسه فى ردهات القصر عندما كان يرص الخزائن أو الصناديق الحديدية المملوءة بالجنيهات الذهبية وقد نثر الخديوى بعض الجنيهات الذهبية على البساط للمعلم الذى تقدم وقبّل رجل الخديوى لأنه لم يسمح له بتقبيل يده..

ولم يعلم فضل الله الصغير أو الكبير أن هذه الصناديق كانت تحوى جنيهات ذهبية باع بها الخديوى إسماعيل أسهم مصر فى قناة السويس لبريطانيا عندما كان رئيس وزرائها دزرائيلى وأن الذى تطوع بسداد الثمن كقرض لحكومة بريطانيا هو البارون روتشيلد لأن الخزانة البريطانية لم يكن فيها مبلغ أربعة ملايين جنيه وهو الثمن البخس لأسهم قناة السويس التى كانت تملكها مصر وهى نصف أسهم شركة القناة تقريبا.

ولكن المعلم على فضل الله كان يتألق فى الحى عندما يعلن زواج فتاة من بنات الأكابر وكان هذا هو يوم المنى عند المعلم، فقد كان من عادة أولاد البلد نقل الشوار (أى جهاز العروسة) فى تعبيرهم على عربات الكارو بطريقة لافتة للأنظار، بحث توضع كل قطعة أثاث على عربة حتى تصل عدد العربات إلى عشرين عربة أو أكثر من ذلك فيوضع السرير على عربة والدولاب على عربة. والكنبة على عربة والمرتبة على عربة وآنية النحاس على عربة وهكذا، وكان لأم العروس الرأى الأول والأخير فى هذه العملية وهى التى تحدد الأصناف التى توضع على العربة حسب نوعها، فإن كانت عربة بحصان لها أربع عجلات يوضع عليها السرير، وإن كانت عربة بحمار ذات عجلتين توضع عليها مرتبة أو لحاف وأربع مخدات..

وكان موكب هذه العربات يتقدم عربة بعد عربة أمام بيت العروس ولابدّ أن تكون عربة المعلم على فضل الله هى العربة الأولى فى الموكب، ثم يحدد هو بنفسه طريقة وخط سير العربات التى كانت تتحرك واحدة بعد أخرى إلى الحارات المجاورة ليعود الموكب كله فى مسيرته من أمام بيت العروس تتقدمها عربة المعلم الكبير..

أما تعليمات المعلم فقد كانت تحتم غسل العربات وتنظيفها فى الليلة السابقة. وكذلك غسل الخيول والحمير وقص شعورها إن كانت قد طالت، والخيول لا تقص لها شعور، ولكن الحمير هى التى كانت تقص شعورها ولها حلاق خاص يقصها بطريقة معينة وفى يده مقص كبير مخصص لقص شعر الحمير، وكان حلاق الحمير يسعد فى تلك الأيام المفترجة عندما يكتب كتاب بنت من بنات أكابر الحى ويجد رزقه فى قصّ

شعور عدد من الحمير، كما كان البيطار وهو شخصية أخرى من الشخصيات الهامة فى الحى يسعد أيضًا لأنه سيركب حدوة حصان أو أكثر من حدوة لخيول العربجية حتى تتهيأ لهذه الزفة المباركة.

وخيول عربات الكارو هذه كانت فى الأصل من خيول سباق الخيل التى فشلت فى السباق وأصبحت لا قيمة لها، وأصبح أصحابها يحاولون التخلص منها بأى ثمن حتى لا ترهقهم نفقاتها فى غير طائل وكان أحد أبناء الحى من سلالة الحاج الكبير له صلة بالأمراء والأميرات والباشوات والأعيان أصحاب خيول السباق فاتخذ من هذه الخيول تجارة رابحة له، وكان يشتريها من أصحابها ويبيعها لطوائف العربجية فى حيّنا وفى غيره من أحياء القاهرة.

ولكن حصان سباق الخيل لابدّ من تدريبه وتأديبه وتهذيبه حتى يرضى بجرّ عربة كارو. وهى عملية تحتاج إلى صبر ومهارة.. فكيف يقبل حصان كان يأكل اللوز المقشر ويشرب الماء بالسكر ويعيش فى ترف ونعيم وتدليل بأن يجرّ عربة كارو؟

وذات يوم امتطيت صهوة حصان من هذه الخيول، وأنا صبى وكنت أحب ركوب الخيل،،ولكن هذا الحصان ظن أنى من الجوكية الذين يركبون الخيل فى السباق وانطلق نحو ميدان عابدين بلا سرج ولا لجام، وأوشك أن يقذف بى على أسفلت الميدان ويقتلنى لولا أنى أمسكت برقبته وأحطتها بذراعى استمساكًا بالحياة..

ولكن حصان المعلم على فضل الله وهو فى الأصل من هذه الخيول الأصيلة كان قد هدأ واستقرت أحواله وأصبح من خيول الكارو بعد أن كان من خيول السباق، وكان حصانا أبيض جميل الصورة له صهيل بديع

يعبر عن أصله العريق بعد أن جار عليه الزمان فأصبح عبدًا بعد أن كان سيدا. كان المعلم، يحس بهذا الإحساس فيربت على رقبته برفق، ويقدم إليه بيده حزمة برسيم أخضر، وقيل إنه كان يصحبه معه إلى البوظة التى كانت فى شارع عماد الدين فيشرب هو (قرعة بوظة) ويسقى هذا الحصان (قرعة بوظة) وهى الشراب الذى كان يشربه أولاد البلد حينذالك فى وعاء يبدو أنه كان يصنع من غلاف ثمرة جافة مستديرة عميقة تمثل أقل من نصف كرة، وقد كان يحلو لأبناء البلد أيضا شرب القهوة فى الغلاف الخارجى لثمرة جوز الهند التى يكسرونها بطريقة معينة ويجعلون من نصفها الذى يمثل أقل من نصف الكرة أيضا وعاء يشربون فيه القهوة.. وكانوا يحرصون أشد الحرص على هذا الإناء.. وكلما طال عمره فى القدم ازدادت قيمته عند صاحبه الذى يعتز به ويخصّ به نفسه فى ساعات مزاجه الشخصى، ولا يسمح لأحد غيره أن يستخدمه..

أما المعلم على فضل الله فقد كان يسمح لحصانه أن يشاركه فى شرب البوظة من نفس القرعة أى الوعاء الذى يشرب منه إكراما أو إرضاء لهذا الحصان الذى كان من أعز أصدقائه.

وفى زفة نقل جهاز العروس من بيتها إلى بيت زوجها كانوا أحيانا يزينون عجلات العربات بالورق الملون والورود والأغصان الخضراء وغيرها من وسائل الزينة حسب رغبة والدة العروس، وقد لا يصنعون هذه الزينة وفقا لرغباتها وتوفيرا للنفقات، كما كانوا يزينون الخيول والحمير أيضا بالورود والأغصان التى توضع على رقابها وفوق رأسها وظهرها.

وكانت العادة أن تتقدم هذه الزفة فرقة موسيقية من فرق شارع محمد على التى حدثتك عنها كثيرا ثم يقود كل صاحب عربة عربته ويمسك بلجام حصانه أو حماره ويتحرك الموكب بين أنغام الموسيقى وزغاريد نساء الحى حتى يبلغ غايته عند بيت العريس فيستقبل أيضا بزغاريد النساء..

وخلال مسيرة الموكب فى شوارع وحارات الحى كانت الفرقة الموسيقية تقوم بتحية الذين يتقدمون للتحية فتعزف لهم اللحن الشهير الذى يسمونه السلام المربّع وهو يقترن دائما بكلمة مشهورة هى:

- سلام مربع يا جدع.

ولا أدرى لماذا هو سلام مربع..؟ ولعلهم يشيرون بذلك إلى أن الله خلق الأرض ولها جهات أربع، فهم يقدمون السلام لجميع شعوب الأرض. ولعلهم يقصدون إلى شىء آخر غير هذا..

لست أدرى..

المهم هو أن طائفة العربجية كان لهم دور عظيم فى إسعاد الناس فى الجيل الماضى. وهم الذين كانوا ينقلون فرق العوالم على عرباتهم من شارع محمد على إلى الأفراح والليالى الملاح. وهم الذين كانوا يسعدون الأطفال عندما يحملونهم على عرباتهم. وهم فى ملابسهم الجديدة الزاهية فى الأعياد والمواسم إلى شاطىء النيل ومعهم طبولهم وزماراتهم التى تملأ الجو بهجة ومرحا..

وقد لفت نظر أحد الرسامين الفنانين من أهل الصين هذا المنظر البديع الرائع، فرسم لوحات فنية بديعة لعربات الكارو التى تحمل

لأطفال فى الأعياد والمواسم.. وكانت من أبدع اللوحات التى رسمتها ريشة رسام عن مصر.

أما عربجية الحنطور فهؤلاء لهم شأن آخر وسأحدثك عنهم حديثًا خاصًا.

الأستاذ عبد المقصود
بائع سريح وصاحب ورئيس تحرير مجلة

شاهدت فى حياتى أشياء كثيرة عجيبة وغريبة.. ورأيت شخصيات أعجب وأغرب. وقد أتيح لى بطريق المصادفة أن أرى الناس عن قرب فى أسفل القاع وفى أعلى القمة .ودخلت الجحور والقصور، وسمعت أحاديث السوقة والرعاع وأحاديث الباشوات والأمراء والأميرات. وذات يوم جلست فى ردهة فى قصر عابدين بين مكتب الملك فاروق ومكتب سكرتيره الخاص حسن حسنى باشا على كرسى يجاور كرسى الباشا أمام حشد من رؤساء تحرير الصحف المصرية لإعلان ميلاد ولى عهد المملكة المصرية الأمير أحمد فؤاد.

ولكن كل هذا لايهم لأن هذه الشخصيات معروفة ولها تاريخ. وأنا أبحث عن الشخصيات المجهولة التى ليس لها تاريخ..

من منكم يعرف فراش قسم اللغة العربية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة الذى كان يقدم القهوة للدكتور طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام .وغيرهم من الأعلام ويعرف مواعيد المحاضرات وأسماء الطلبة والطالبات ويعدّ المدرج عند مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه..

هذا الرجل (محمد مرسى) كان واحدا من صناع أعلام الفكر والأدب والثقافة فى مصر، وياليتنى أعرف تاريخ حياته حتى أسجله فى كتاب على أنه واحد من عشاق الثقافة المجهولين فى حياتنا الحديثة، وكان يهيئ للأساتذة والطلاب جوا هادئا مريحا تدق فيه ساعة الجامعة دقات تتجاوب معها دقات قلوبهم المتطلعة للمستقبل دائما..

ومن منكم يذكر (سلطان) الحاجب الخاص للعميد طه حسين الذى كان يجلس على بابه بملابسه الرسمية وشاربه الجميل الملفت للنظر ليعبر بوجهه المريح وعينيه الهادئتين وابتسامته الدائمة وحيويته المتدفقة عن هذا النهر المتدفق الهادئ الذى تتصارع الأمواج فوق صفحته بلا صخب ولكن فى نغم.. فهو الهادئ الثائر. وهو المنطلق الثابت. وهو العابث الرزين وهو الحالم العاقل.. وهو طه حسين الجالس خلف مكتبه فى هذه الغرفة الواسعة أمام السلم..

هل اكتسب سلطان من الدكتور طه حسين شيئا فلم تعد تبدو عليه شراسة أمثاله من الحراس أو الحجاب؟ ليتنى أعرف..

ولكن الشخصيات المجهولة لها أصناف وأشكال، غير أن ألطف هذه الشخصيات وأقربها إلى التندر والسخرية من كان منهم له صلة بالصحافة أو الأدب والفن والثقافة، وأنت تجد تسلية عظيمة فى نوادرهم وأحاديثهم وما يعتقدونه فى أنفسهم من مقدرة وما يدّعونه من شهرة وصيت لها علاقة بالأعلام المشهورين الذين قذف بهم القدر فى طريقهم، وقد يكون الواحد منهم أحد أبناء أسرة مشهورة لمع بعض أبنائها فى عالم الأدب أو الصحافة أو التاريخ أو الغناء أو الموسيقى فيعتقد أنه أصبح مشهورا مثلهم..

وقد يكون أحدهم مصححًا فى مطبعة وشاء القدر أن يصحح بروفات

كتاب لأحد العمالقة الكبار فلا يلبث أن يلبس ثوب هذا العملاق. ثم تدفعه دوافع مجهولة إلى ادعاءات غريبة لا يصدقها عقل.. قد تصل إلى أنه هو مؤلف الكتاب..

هؤلاء كثيرون من هواة الشهرة على حساب الأعلام المشهورين وقد شاهدت وعرفت كثيرين..

قال لى أحدهم ممن ساقتهم الأقدار لتصحيح بروفات كتاب الأيام للدكتور طه حسين وكتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل أنه أصلح أسلوب طه حسين، ولما قلت له إن طه حسين كان يملى على كاتبه لأنه كان مكفوف البصر ولا يمكن أن يسبقه القلم حين يكتب فيخطئ. كما أنه صاحب أسلوب خاص يسمعه منه الناس فى الإذاعة. وسكت هذا الرجل خجلًا ولكنه لم يكن متصفا بالخجل فزعم أنه ساعد الدكتور هيكل فى تأليف كتابه النادر (حياة محمد) وكان هذا المصحح أزهريا فاسدا، وفى أيامنا كانوا يصفون الأزهرى الذى لا ينجح فى دراسته بأنه فسد ولم يستطع مواصلة الدراسة فيطرده المشايخ من حلقات الدرس..

وكان بعض هؤلاء يعمل قارئا للقرآن عند المقابر أويشتغل مصححا فى مطبعة إلى غير ذلك من أعمال تناسب معارفه ومعلوماته التى وصل إليها فى الأزهر الشريف، وقد يسعفه الحظ فيعمل معلما فى كتاب أو مدرسة أهلية وقد يعمل مؤذنا أو خادما فى مسجد..

ولكن الشيخ على كان مصححا عظيما له معرفة بالنحو واللغة. ولم يعرف السبب فى طرده من حلقات الدرس فى الأزهر.. ولكن الشائعات كانت تطارده ويزعم منافسوه أن المشايخ الكبار طردوه لأسباب أخلاقية لا علمية وكان قد خلع الجبة والقفطان والعمامة منذ زمن بعيد وارتدى

الثياب الأفرنجية وكانت له شهرة بين المصححين، ولكن لقب الشيخ لازمه حتى بعد أن أصبح أفنديا على رأسه طربوش، وعندما اشتغل مصححا فى جريدة السياسة كلفه الدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس تحريرها بتصحيح بروفات كتابه (حياة محمد) فاعتقد أنه شريكه فى تأليف الكتاب ما دام قد صحح البروفات.

وذات يوم زعم سكرتير الدكتور طه حسين أنه كان شريكا له فى كتابة المقالات أو تأليف الكتب، وهذه أيضا من النوادر التى تروى فى مجال النكت الأدبية تضاف إلى فصل قديم من فصول الأدب العربى اسمه (السرقات الأدبية) فقد زعم بعض الناس أن المتنبى سرق بعض معانى أو ألفاظ أو أبيات أشعاره من شعراء آخرين مجهولين..

ولكن الشيخ على كان شخصية نادرة بين شخصيات الأدعياء قديما وحديثا. وقد كانت رأسه الصلعاء مثل الزلط وهى تشبه زلطة كبيرة ملساء لو دققت عليها بشاكوش فإنها لا تتكسر، ولا يجوز لك أن تناقشه بل يجب أن تأمره، لأن المناقشة معه لا تجدى وقد تعطل الأعمال بلا مناسبة ولا فائدة، بل إنها تؤدى إلى ضياع الميزات التى تميز بها فى صناعته التى كان يتباهى بها وهى أن الكتاب أو الموضوع الذى يصححه لا توجد فيه أخطاء نحوية أو لغوية أو إملائية. فقد كان يتقن صناعته ويخشى أن يوجه إليه لوم فيما يعمل، وعليك أن تحتمل غروره حتى لو ادعى أنه هو مؤلف كتاب (حياة محمد) للدكتور هيكل. أو صاحب الفضل الأكبر على الدكتور طه حسين فى أسلوبه البديع فى كتاب (الأيام) لأن أى ادعاء بعد ذلك جائز.. وماذا يبقى بعد الدكتور هيكل والدكتور طه حسين؟.

وكان الشيخ على يقضى وقته فى المطابع وقد يدركه الليل فيبيت فى

مطبعة منها مع عمال الليل.. وظن بعض الناس أن إخلاصه الشديد لعمله هو الذى يلجئه إلى ذلك حتى يترك بيته وفراشه وينام فوق فراش من ورق الصحف يضعه فوق لوح خشبى ولا يخلع من ثيابه إلا الطربوش والحذاء، وعندما خلع الناس طرابيشهم أصبح لا يخلع إلا الحذاء من قدميه.. وقد يخلع الجورب أيضا ويضعه داخل حذائه، وكان المسكين يأكل الأطعمة الشعبية مع عمال المطابع ويشرب الشاى معهم كلما صنعوه وأعطوه كوبًا صغيرًا من أكوابهم.

وقيل إنه كان يذهب أحيانًا إلى المسمط فى حى السيدة زينب أو حى الحسين ليأكل أكلة دسمة من الكوارع ولحمة الرأس مع طبق من الفتة، بل إنه اشترك مرة مع عمال إحدى المطابع فى أكلة لحم مسلوق وظل يتحدث عنها أيامًا، كما قيل أيضا إنه كان يعرف امرأة صاحبة قهوة بلدية فى حارة من الحارات القريبة من حديقة الأزبكية. وكانت تسمح له بالمبيت عندها فى القهوة والنوم على دكة خشبية فرشت فوقها حصيرة..

ولكن الحادثة الفظيعة التى حدثت للشيخ على وقعت ذات ليلة فى إحدى مطابع جريدة يومية كانت تصدر فى تلك الأيام وكانت مطابعها تقوم بطباعة بعض الكتب، فقد دخل بعض عساكر البوليس ومعهم امرأة تلبس ملاءة سوداء وتبدو على سحنتها مظاهر الشر والشقاء. وقبضوا على الشيخ وأخذوه معهم فى سيارة الشرطة ومعهم المرأة وذهبوا وتضاربت الأقوال حول القبض على الرجل. وتعددت التهم التى يمكن أن توجه إليه ابتداء من المخدرات وهتك العرض حتى طباعة المنشورات السرية.. والانتماء إلى الخلايا التى تعمل فى الظلام، وقال بعضهم إن هذه شريكة فى تجارة المخدرات، وقال آخر إنها صاحبة قهوة الأزبكية وقد ضبطوا عندها

المنشورات تحت الدكة الخشبية..

معقول ياناس الشيخ على يفعل مثل هذه الأشياء.. ولم لا؟ كل شيء معقول.

وأخيرًا تكشف السر فقد كانت هذه المرأة إحدى زوجاته المطلقات التى كانت تنفذ عليه حكمًا قضائيا بالنفقة الشرعية.

ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الشيخ على إلى ذكر اسم الدكتور هيكل أو الدكتور طه حسين..

أما الأدعياء فى عالم الصحافة فقد رأيت منهم كثيرين جدا ممن طوى أسماءهم نسيان الزمان، وكان منهم أمّيون أو أشباه أميين، وكان منهم أصحاب دكاكين أو باعة يسرحون فى قطارات السكك الحديدية وأشهرهم بائع سريح كان يبيع العطور داخل دولاب صغير يحمله على صدره ويركب القطار من القاهرة إلى الإسكندرية وبالعكس ليبيع للناس زجاجات صغيرة من الفل والياسمين والنرجس وغيرها من العطور البلدية.

وكان هذا الرجل الأستاذ عبدالمقصود يأتى إلى إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية كل أسبوع ليحصل على استمارة سفر مجانية من القاهرة إلى الإسكندرية ذهابًا وإيابًا لأنه كان صاحب ورئيس تحرير مجلة وكان من حقه الحصول على هذه الاستمارة، وكان يعطى الأفندى الذى يحرر له الاستمارة زجاجة عطر بعد أن يفتح الباب الزجاجى للدولاب الصغير ويقول له:

– هذه بركة من السيد البدوى لأن مقر مجلته كان فى طنطا، ثم يحمل

دولابه وينصرف ولكنه كان يحمله تحت إبطه ولا يحمله على صدره، فلا يظهر منه الباب الزجاجى وخلفه زجاجات العطور التى يرصها فوق رفوف صغيرة فى نظام دقيق حتى لا يلفت النظر عندما يبدو أمام الناس الجزء الخشبى من الدولاب فيظنونه شيئًا يشبه الحقيبة أو غيرها مما يضع فيه الناس أشياءهم ، وقد كان بعض الناس يصنعون حقائب السفر من الخشب.

وكان من هؤلاء الأدعياء رجل صاحب دكان خردوات فى إحدى مدن الوجه البحرى. وهو صاحب ورئيس تحرير مجلة أيضًا.

ومع ذلك كانت هناك جرائد إقليمية عظيمة فى عالم الصحافة المصرية وكان أهمها جريدة (الإنذار) التى كان يصدرها الأستاذ صادق سلامة فى المنيا وكانت لا تقل أهمية عن صحف القاهرة، وكذلك جريدة (البصير) التى كانت تصدر فى الإسكندرية. أما صحف الأدعياء فقد كانت تصدر أيضًا فى القاهرة. وقد فوجئت عندما أعلنت الأحكام العرفية وفرضت الرقابة على الصحف يوم حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ بأن مدينة القاهرة وحدها فيها أكثر من ستمائة مجلة. ولاحظت أن عشرات منها لا يتبدل منها سطر واحد مطبوع، بل يتغير الاسم وتتغير الإعلانات وكل مجموعة منها تطبع فى مطبعة واحدة تصدر منها أكثر من عشرين أو ثلاثين مجلة، وتقدم من كل واحدة منها ست نسخ لإدارة المطبوعات طبقًا للقانون.

ومن طرائف هذه المجلات المجهولة وأصحابها المجهولين أيضًا أن إحداها نشرت أخبارًا عن راقصة فى أحد ملاهى الليل وقالت إنها نشأت وتربت فى حارة العوالم بشارع محمد على ثم تزوجت مكوجيا وطلقت منه،

وكان زوجها الثانى نجارًا فى حارة المناصرة بشارع محمد على أيضًا، وسردت قصة حياتها على هذا المنوال حتى أصبحت راقصة من راقصات الليل. وجاءت الراقصة إلى إدارة المطبوعات ومعها طبال الفرقة، وطلبت تكذيب الخبر لأنها لم تتزوج المكوجى ولا النجار، وأبدت احتجاجها بهذه الصورة غير اللائقة..

إن المجهولين فى تاريخ الصحافة المصرية أكثر كثيرًا من المعروفين، بل إن المجهول فى حياة هذه الصحافة أكثر من المعلوم.

ولكن أعظم هؤلاء المجهولين شأنا كان مندوب إحدى الجرائد اليومية الكبرى عندما ذهبنا إلى الإسماعيلية فى شهر نوفمبر ١٩٥٦ أثناء العدوان الثلاثى على مصر فى محاولة لدخول بورسعيد أثناء احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمدينة.

كان معى فى هذه الأيام مندوبون عن الصحافة العالمية وعن الصحف المصرية، بعد أن حصلنا على تصريح من الأمم المتحدة بدخول بورسعيد حتى يرى العالم آثار العدوان ويكتب الصحفيون ما يشاهدون، وأقامت الوفود الصحفية العالمية ومندوبو الصحف المصرية فى فندقين بالإسماعيلية فى انتظار الإجراءات التى يتخذها (مستر كنج) مندوب الأمم المتحدة مع جنرالات فرنسا وبريطانيا، وقد اتخذ مقرا له فى قرية (البلاح) على مقربة من بورسعيد وأقمنا فى الإسماعيلية يومين، ومنعنا من دخول بورسعيد برغم تصريح الأمم المتحدة، وقد أعددت بيانًا بذلك وقعه رجال الصحافة العالمية ومنهم مندوبو الصحف البريطانية وأذيع فى إذاعة القاهرة وفى الإذاعات العالمية.

وكان الأستاذ مندوب هذه الجريدة يملى الأخبار بالتليفون وليست فى

يده ورقة ولا قلم حتى يكتب فيها الأسماء أو وقت حدوث الأحداث أو غيرها مما يقتضيه الخبر الصحفى من الدقة والأمانة، ولاحظت أنه يخطئ أحيانًا فى الأسماء مثل اسم الجنرال ستوكويل قائد الغزو البريطانى، أو مستر كنج مندوب الأمم المتحدة، إلى غير ذلك، ولما نبهته إلى ذلك قال لى:

- هم يصلحونها فى مصر.

وضحك أحد زملائه وهمس فى أذنى قائلًا:

- إنه لا يجيد القراءة والكتابة.

ولذلك لم أعجب من أن يكون بائع سريح فى قطار الإسكندرية صاحب ورئيس تحرير مجلة.. ولعله كان هو الآخر لا يجيد القراءة والكتابة.

الرجل ذو السن الذهبية

كان الشيخ طه آخر شيخ حارة عرفته.. فقد انتهى عصر مشايخ الحارات قبل رحيله من الدنيا برغم إصراره، على أنه هو شيخ حارة عابدين بعد إلغاء هذا النظام القديم.

وعندما نظم محمد على مدينة القاهرة وقسمها إلى ثمانية أقسام جعل فى كل قسم منها مركزًا للبوليس أو (قره قول)، وكان ميدان القلعة يسمى (قره ميدان) وقد فهم بعض الأساتذة المحدثين أن كلمة (قره) التركية ومعناها (أسود) أن (قره ميدان) هو الميدان الأسود. وهى ترجمة حرفية ساذجة لأن ميدان المنشية أو ميدان القلعة كان مكان تجمع العساكر الذين كانوا يلبسون فوق رءوسهم القلبق الأسود وهو غطاء الرأس المصنوع من الفرو الأسود.. وكان مركز البوليس يضم طابورًا من هؤلاء العساكر أو (قول) من الجند.. وما زالت كلمة (قول) مستخدمة فى الجيش حتى الآن..

وقد حرفت كلمة (قره قول) إلى كلمة (كركون) كما كان يطلق على مركز البوليس أو قسم البوليس اسم (تمن) لأن القاهرة كان بها ثمانية أقسام، وكل قسم منها هو (تمن) هذه الأقسام.

وكان لكل قسم من هذه الأقسام شيخ كانوا يطلقون عليه اسم (شيخ التمن) ولكن لقب (شيخ الحارة) كان لقبًا قديمًا جدا منذ كانت القاهرة عندما أنشأها المعز لدين الله الفاطمى وقسمها إلى حارات. والحارة حى كامل كانت تعيش فيه طائفة متجانسة من الناس أو قبيلة من القبائل التى جاءت مع المعز من المغرب، وأشهرها قبيلة (زويلة) التى كانت لها حارة ما زال بابها من أشهر أبواب القاهرة..

وعندما هدم نابليون بونابرت أبواب الحارات فى القاهرة قامت الثورة. وقد وصف الجبرتى عملية خلع هذه الأبواب وصفًا مأساويا، وذكر أن عساكر الفرنسيين خلعوها وجمعوا أخشابها عند بركة الأزبكية حتى أصبحت أكواما هائلة من الأخشاب.

وكانت أبواب الحارات هى الوسيلة العملية فى حماية أمن القاهرة من هجمات لصوص الليل أو (المنسر) عندما كانت عصابات الأشقياء تهاجم البيوت والدكاكين للسرقة وعلى رأس كل عصابة شيخ يسمونه (شيخ المنسر) أى زعيم العصابة التى كانت تنقض على المدينة فى الليل وكأنها نسور جارحة ولذلك سميت بهذا الاسم وهو (المنسر). فكان إغلاق أبواب الحارات بعد العشاء وحتى مطلع الفجر من دواعى الأمن فى هذه الحارات..

وكان لمشايخ الحارات أهمية كبيرة فى عصر محمد على، وعندما أراد الباشا اختيار بعض الصبيان لتعليمهم الصناعات الحديثة فى دار الصناعة أصدر أمرا لمشايخ الحارات الثمانية باختيار ثمانين ولدا فى سن الثامنة لتعليمهم القراءة والكتابة والصناعة وقام كل شيخ حارة بإحضار عشرة أولاد فى هذه السن إلى القلعة واختبر محمد على بنفسه ذكاءهم وفطنتهم

وقبل منهم الأولاد الذين رأى فيهم النجابة ورد من لم يعجبه منهم حتى اكتمل عددهم ثمانين كانوا نواة عمال الصناعات الحديثة فى ذلك العصر، وقرر أن يكون تعليمهم وكسوتهم وطعامهم على حساب الديوان وأن يصرف لكل ولد منهم قرشين فى اليوم كمصروف خاص له.

وتكررت حكاية الثمانين ولدا الذين يعدّون لبناء الدولة الحديثة فى مجالات الصناعة وأطلق عليهم محمد على اسم (إشراقات) وظلت كلمة (إشراق) مستخدمة فى الحكومة حتى عهد قريب وكانت تطلق على (الصبى) الذى يلحق بعمل من الأعمال لتعلّم الحرفة أو الصنعة من عمال المطبعة الأميرية أو غيرها من مطابع الحكومة فيقال عن هؤلاء الصبية أنهم إشراق وهى كلمة جميلة لها دلالات الشروق أى طلوع نهار جديد..

وعندما أصدر يعقوب صنوع مجلة (أبو نظاره) لمهاجمة الخديوى إسماعيل عن طريق السخرية من تصرفاته لم يكن يستطيع تناول شخصية الخديوى بطريقة مباشرة فاختار له لقب (شيخ الحارة) الذى أصبح من الصور الكاريكاتيرية المكتوبة فى الصحافة المصرية قبل ظهور الرسم الكاريكاتيرى الذى اشتهرت منه شخصية (المصرى أفندى) وشخصية (رفيعة هانم والسبع أفندى) وغير ذلك من الشخصيات التى مازالت تظهر على صفحات الصحف والمجلات..

ولكن شخصية الشيخ طه كانت فريدة من نوعها..

كان يرتدى الجلباب والمعطف والطربوش عندما ظهر هذا الزى عند أولاد البلد فى أوائل القرن العشرين وقد حدثتك من قبل عن الترزى الإيطالى (إدمندو) الذى كان الخياط الخاص للسلطان حسين كامل وعندما رحل السلطان سريعا اشتغل (إدمندو) فى مهنته فصنع المعاطف

لأولاد البلد الذين أعجبهم أن يلبسوها فوق الجلاليب ثم يكملون الصورة بلبس الطرابيش.. فلا هم أفندية.. ولا هم أبناء بلد.. وهكذا كان يفعل الشيخ طه..

ولكن هذا الزى لم يكن يميزه بين أقرانه؛ ولذلك ابتكر طريقة يعرف بها حين يراه أى إنسان فيميزه من بين العشرات أو المئات، فقد ركب سنا ذهبية فى فك أسنانه بحيث تكون ظاهرة لامعة على يمين شفتيه حين يبتسم.. وكنت لا تراه إلّا مبتسما حتى فى أحلك المواقف حتى تظهر هذه السن الذهبية دائما أمام الناس.

وكانت السن الذهبية موضة من موضات العصر الماضى عند النساء لبلديات! وكن يركبن على سن واحدة فى الجانب الأيمن من الفك عند انفراج الشفتين طربوشا من الذهب على هذه السن حتى إذا ضحكن أو ابتسمن ظهرت هذه السن الذهبية.. وهى من علامات الدلال والجمال عندهن.. وقد اشتهرت هذه السن الذهبية فى الأغانى الشعبية ومنها أغنية تقول بعض كلماتها الغزلية..

يابو سنه دهب لولى

ولكن الشيخ طه ركب هذا الطربوش الذهبى فوق سنّه لغرض آخر برغم أنه كان يزعم أنه فعل ذلك لحماية هذه السن من التلف. فقد أراد أن يعرفه كل الناس بعلامة مميزة لا تخطئها العين، ولذلك اشتهر بين مشايخ الحارات جميعا بأنه: شيخ الحارة أبو سنّه دهب.

وقد اشتهرت إحدى قريباته الجميلات بأنها هى أيضا أم سنة دهب، وكان فى خديها غمازتان. فإذا ضحكت ظهرت السن الذهبية مع الغمازتين

مما كان يدعو شباب الحارة إلى مضاحستها حتى يستمتعوا بهذا المنظر الجميل ثم يقولون لها على سبيل الغزل البرىء:

- اللهم صلى على جمال النبى.

وكان يسرها أن تسمع غزل الشبان..

أما الشيخ طه فكان يعجبه أن تمدح شهامته وهمته فى تخليص المشاكل فى القسم أى فى مركز البوليس، ولكنه كان مثل المنشار«طالع واكل نازل واكل» كما يقول أولاد البلد، فهو لا ينهى أمرا إلا بالفلوس واشتهرت عنه حكمة غالية هى قوله:

- اخلص، تخلص.

أى خلص نفسك من المشاكل بفلوسك.

أما إذا لم يعجبه المبلغ المدفوع فكان يقول:

- ماينوب المخلص إلّا تقطيع هدومه..

وكان الشيخ طه رجلا متوسط الجسم طولا وعرضا سريع الحركة دائم النشاط فى الليل والنهار، لم ير طوال حياته راكبا حمارا أو تراما أو دراجة بل كان يمشى ويطوف بشوارع الحى وحاراته ومعه مظروف أصفر من مظروفات الحكومة به أوراق.. وكان أصحاب الحاجات من الرجال والنساء يجدونه دائما أمامهم أو معهم فى القهاوى والبيوت ليحل مشاكلهم عند الحكومة.

تجنيد.. مخالفات.. قضايا وحجوزات فى المحكمة.. قرارات هدم للبيوت.. ضمان مسجون أو مشتبه فيه.. تسجيل عقود.. بيع شراء.. رخص محاضر مخدرات وسرقات وهتك عرض وخلافه..

كان يتعامل مع كل شيء له صلة بالحكومة.. وهو مندوب الحكومة عند أهالي الحي.. وكل شيء بثوابه.

وكان يعرف اللصوص والشرفاء على السواء.. ويتعامل معهم جميعا طبقا لنظرية (كل شيء بثوابه) وحكمته البالغة (اخلص تخلص) ويزعم دائما أنه لا يأخذ شيئا لنفسه ولكنه ينفق ما يأخذ لتخليص المشكلة..

وعندما كان يقع فى مشاكل تزوير الأوراق الرسمية أو الشهادة الزور ومخاطر الكذب والادعاء بالباطل لا يهتز ولا يخاف.. بل يبتسم حتى تظهر السن الذهبية ويقلب الموضوع من أساسه. وكانت عنده المهارة والخبرة التى تمكنه من الخروج من المآزق بسهولة، فهو دائما حسن النية ولكن الناس أولاد حرام يضحكون على ذقنه ويحاولون النيل من شرفه.

المعلم بدر المبيض سكن فى الحى وله ولد واحد مطلوب فى التجنيد وهذا الولد وحيد والديه ويجب أن يعفى من التجنيد لهذا السبب.. ولكن المعلم بدر له زوجة أخرى وأولاد آخرون فى باب الشعرية فكيف يعرف الشيخ طه ذلك؟ إنه غير مسئول عن إخراج الولد من التجنيد لأنه لا يضرب الرمل ولا يعلم الغيب الذى لا يعلمه إلّا الله.. ولكن المعلم بدر يقسم قسما عظيما بأنه لم يذهب إلى باب الشعرية طوال حياته وأنه طول عمره يسكن فى عابدين.. ويضحك الشيخ طه ثم يقول إن شهادته إذن صحيحة مع أن المعلم بدر له أربعة أولاد وبنتين.. فهذا موضوع آخر.. ولابدّ أن يدفع المعلم بدر الأتعاب. ثم يثبت فى النهاية أن الولد لم يصدر له قرار بالإعفاء من التجنيد وإنما تأجل تجنيده وعندما ما يعرف المعلم بدر الحقيقة يقول له الشيخ طه:

– هل أنا مغسل وضامن جنة؟ رزقى ورزقك على الله.. المرة القادمة

يعفى يا سيدى.. ويا دار ما دخلك شر..

وفى ليلة شتاء حالكة السواد ضبط الواد سيد القهوجى داخل القهوة ومعه قطعة حشيش يبيع منها للزبائن واقتادوه إلى الكركون فسارعت أم سيد إلى الشيخ طه وأيقظته من النوم وشرحت له الحكاية وهى تولول فقال لها:

- ولا يهمك.. أنا ذاهب إلى الكركون فورا ولكن..

فقالت المرأة..

- ولكن إيه يا شيخ طه؟؟

فضحك حتى لمعت السن الذهبية فى فمه وأردف قائلا:

- الحشيش مش حشيش سيد ده حشيش الزبائن.. أنا أعرفه.. إنه لا يعرف الحشيش من الحنة..

وصاحت المرأة مولولة مرة أخرى.. وخلعت القرط الذهبى من أذنيها والغويشة الوحيدة من يدها.. ووضعتها فى يد الشيخ طه قائلة:

- فى عرضك.. قم والبس واذهب إلى الكركون.

وفى لمح البصر كان الشيخ طه إلى جانب الشاويش النوبتجى الذى يحرر المحضر.. وتحرر المحضر.. وقال الشيخ طه على لسان سيد إن أحد الزبائن أعطاه ورقة ملفوفة ولم يكد يأخذها منه حتى وجد البوليس يقبض عليه، وسئل سيد إن كان يعرف الزبون فقال على لسان الشيخ طه أيضا إنه زبون طيارى وليس من زبائن القهوة وأحيل المحضر والحرز والمتهم إلى النيابة ووضع سيد فى الحجز حتى الصباح للذهاب إلى النيابة.

وعاد الشيخ طه يخبر أم سيد بأن الواد سيد سيخرج غدا.. لأن

العسكرى الذى قبض عليه قال إن لفافة الحشيش كانت فى يده وليست فى جيبه.. وأنه قال فى القسم إن سيد غلبان ويتيم ويعول أمه وأنه ليس ممن يفعلون مثل هذه الأشياء، وأقسم قسما عظيما بأنه أعطى الأمانة التى أخذها منها للعسكرى حتى يشهد لصالح الواد سيد فى النيابة:

وعندما أفرجت النيابة عن سيد القهوجى بكفالة وأمرت بالقبض على صاحب المخدرات بعد التحرى عن الواقعة.. قال الشيخ طه فى خيلاء إنه يستطيع أن يفسد أى قضية..

ثم انتهت دولة الشيخ طه لتحل محلها دولة أخرى.. وهذا هو حال الدنيا..

الفهرس

صفحة

صفحة

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور
الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان

شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض

رقم الإيداع		١٩٨٩ / ٥٢٠٧
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٧٠١-٣	ISBN

١ / ٨٩ / ١٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٥٩٧٦/٠١

دار المعارف